وليد النبهاني

المِنْسَأةُ والنَّاي

وقصص أخرى



وليد النبهاني

المِنْسَأةُ والنَّاي

وقصص أخرى



المِنْسَأةُ والنَّاي

وقصص أخرى

وليد النبهاني



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-633-3
الطبعة الأولى 2015

إِذا دَبَبْتَ على المِنْسَاةِ مِنْ هَرَمٍ

فَقَدْ تَباعَدَ عَنْكَ اللَّهْوُ والغَزَلُ

مجهول

القصص

الأحدب

رأتْه مرة وهو يراقبها من سطح البيت العوْد و(الهاندو) على رأسها بعد أن عبأتها بماء الخزان الحكومي متجهةً إلى بيتها الطيني، وفي المرة الثانية رأته يأخذ فنجان القهوة من يد أخيها الأصغر دون أن تعرف سرّ مجيء ابن الشيوخ هذا ليتقهوى في بيتهم، وفي المرة الثالثة بينما كانت مستسلمة لنوم عميق سمعت وشوشاته تأتي من سطح البيت الطيني فسحبتها من فراشها إلى هناك حيث تعلقت بسبع سماوات وهي مأخوذة بغرامه تحت ضوء النجوم.

بعد أربعة أشهر من زواجهما وَلدتْ (سعدة)، كان ولدًا برأس كبيرة وظهر محدودب وعينين جاحظتين، لم تكن لتصدق أن المصباح الذي أخرجه (سالم) من مغارتها هو الشيطان بعينه، ولا أن يعيش حفيد الشيخ عامر بن سيف الذي يقطن البيت العوْد مع نسائه الأربع في صندقة على تخوم الوادي اتخذها السكارى قبل ذلك خمّارةً لشرب زجاجات الكولونيا.

كان رأس الولد وحدبته يكبران يومًا بعد يوم، لو أنهما ورمًا في يدها لغرزت إبرةً فيه لينفجر الصديد، لكن يدها كانت تمسح على الرأس الكبيرة بحنان بينما تمسك اليد الأخرى بالثدي وهي ترضعه.

سعدة في الصندقة تخيط كمة تسع رأس ابنها، و(داود) يوشك أن يبلغ الخامسة في مدرسة القرآن حيث المعلم سليمان تأخذه سنة من النوم كلما رأى وجهه، كان يحلم بالفتنة التي أرسلها الله له في هذا الزمان، وأن داود هو المسيح الدجّال الذي سيأتي في آخر الزمان، كان في الثمانين من عمره ولم يرغب في أن يسجِّل في كتابه إثمًا يحرمه من الحور العين. لم يرفض تدريس داود تنفيذًا لوعد أبيه سالم الذي ظنّ أن تعلم ابنه القرآن سيقوده إلى تعليم أرقى حين يكبر فيستطيع بعدها أن يعيل أباه وأمه ونفسه قبل كل شيء.

حين سلّم عليه داود في يومه الأول من المدرسة استعاذ من الشيطان كثيرًا في سره. وتحسس يديه متخيلًا أنه سيحاسب في يوم القيامة بقطع يده اليمنى التي ملكت سالم على سعدة؛ تلك الخطيئة التي لم يستطع محوها من تفكيره بعد خمس سنوات من اقترافها. كان في حيرة من أمره: هل يرفض تدريس داود بن سالم؟ وإن فعلها ألن يرتكب خطيئة أخرى في حرمان أحدهم من تعلم القرآن؟ استقر أخيرًا على استقبال داود في المدرسة الطينية التي تقع بجوار مزرعة الشيخ عامر بن سيف. على أن يتركه يتعلم بنفسه من زملائه فما زال يعاني أثرًا سيئًا في ضميره.

لم يمض شهران على بدء تردد داود إلى مدرسة المعلم سليمان لتعلم القرآن حتى انقطع عنها. أخافه حديث زملائه عن (البخّار) الذي يحبس فيه المشاغبون والطلاب الكسالى حيث تعيش العقارب والأفاعي وسائر الهوام المخيفة. حمد المعلم سليمان ربه كثيرًا لأنه لم يعلم ابن الخطيئة هذا. وتمنى ألا

يعود إلى العلم الذي لن ينفعه في شيء. فحسبه أن يحفظ قصار السّور لتعينه على أداء الصلوات. لكن بعد مضي عشر سنوات حين أحيل إلى التقاعد قد لا يتذكر المعلم سليمان أنه سيجبر الناس على الصلاة بمفردهم دون إمام بعد أن ملوا الصلاة خلفه وهو يقرأ قصار السور. وأنه لن يعرف أن أنف داود الأفطس هو من سيدل الناس على جثته التي تفسّخت في البخار عشرة أيام لسبب لا يعلمه إلا الله.

حين خرج من مدرسة القرآن كان داود لا يدري أنه خرج من دفتر الحياة أما أفعاله فمغفورة ما دام لا يملك عقلًا. كان رأسه الضخم معرضًا للغبار والرياح والمطر والشمس لأن كل الكميم التي جاؤوه بها من سوقيْ السيب ومطرح وحتى من الحج لم تفلح في تغطية رأسه. وهكذا ستضطر سعدة إلى خياطة كمة خاصة لابنها.

- ماه باغي أرعى.

- موه ترعى أبوي؟

- أرعى الهوش والجعد.

- نته ما شاوي ترعى يو حبابي. نته ود شيخ.

لم يقتنع داود بهذا الجواب. إذ لم ير ابن أي من الشيوخ إبان وجوده في مدرسة القرآن. قالوا له بأنهم يسكنون في البيت العود وأن المعلمين يأتونهم إلى هناك. كان على أبيه أن يسكن في البيت العود أيضًا إن كان شيخًا.

- ماه متى نتحول البيت العود؟

لم تحر سعدة جوابًا لابنها وانشغلت بخياطة كمته.

اعتاد داود مطاردة الشياه والأغنام كلما لمحها في دربه وهي ترعى من حشائش الوادي الشحيحة. لكن ذلك لم يدع منه راعيًا كما كان يظن إذ ترميه الراعية التي كانت شاوية بشتائم لا يفهمها تمامًا كأن تقول له «ود الخادمة» مع أنه «ابن شيخ»، وإن لم تفلح شتائمها ترميه بحجارة تحاول بها استهداف رأسه. لم يفهم داود رغم رأسه الكبير وعينيه الجاحظتين أن ثمة أسرارًا للرعي لا يتقنها إلا الشوان.

يمثّل داود عقل الكائن البدائي الذي لا يستطيع فهم العالم حوله إلا بالتجربة. ففي يوم من الأيام وبينما كان يقفز على حصى الوادي إذا به ينزلق. ولكي يتفادى السقوط أمسك بحزمة قصب الروغ الذي يملأ الوادي. فانكسرت قصبة منها حين سقوطه على الماء. رأى أن القصبة مجوفة فراح يلوح بها في الهواء حتى صدر منها صوت كفحيح الأفعى. ثم فكر في أكلها. شمّها في البدء ثم قضم منها جزءًا لم يلبث أن بصقه لشدة مرارته. كانت تلك تجربة لا يمكن رؤيتها إلا قبل ملايين السنين، لكن الإنسان بإمكانه تكرار تجاربه البدائية متى ما امتلك ذلك العقل الفطري الذي يجرب الأشياء كالبهائم. لم يكن يدري أنه حين ثقب القصب بزجاجة حادة كان يصنع آلة موسيقية. لو أنه نفخ فيها لكان يمكنه أن يصبح عازفًا ماهرًا مع شيء من المران والخبرة. لكننا بإزاء إنسان بدائي لا يعرف شيئًا من الحضارة سوى ملابسه التي لم يكن يتقن ارتداءها أو حتى المحافظة على نظافتها. ولذلك من الصعب أن يعيد اكتشاف ما سبقه إليه الأسلاف، مع أنه من

غير المجدي أن يجدد الإنسان اكتشافًا توصل إليه منذ ملايين السنين.

إنه إنسان جاهز يأكل مما يهب له موقد أمه. ولا يريد شيئًا من هذه الدنيا. حتى البكاء والرغبة في مفارقة الحياة لعبثيتها لم يكن له يد فيهما. إنه مجبور على كل شيء. على أكله حين يجوع وأنينه حين يمرض ورأسه الكبير وعينيه الجاحظتين وحدبته الثقيلة على ظهره. مضى أكثر من نصف عمره وهو لا يدرك ماهية الأشياء.

ذات فجر طويل لم يستيقظ سالم من سكره. كان قد اشتكى في الأيام الماضية صداعًا مؤذيًا لم تنجح جرعات الكولونيا المخففة بالماء في طرده عن رأسه. فقد ظنه خمارًا.

تركته سعدة فيما ظنته نومًا ثقيلًا ناجمًا عن سهر طويل. ثم إذا أقبل العصر أرادت إيقاظه فلم يستجب لصراخها ولا لولولتها ولا للكولونيا التي سفحتْها على أنفه. كان يشكو من ذلك الصداع الثقيل كثيرًا في الآونة الأخيرة. شخّص الأطباء حالته بأن ورمًا خبيثًا يحتل جزءًا كبيرًا من رأسه. وهكذا سيعيش ما تبقى من أيام في غيبوبة إلى أن يقضي أجله بسرطان الدماغ.

إن وصف ما حل بسعدة فور سماعها الخبر بالجنون لأمر هين. تاهت في الوادي في ليلة دفن زوجها ولم يعد لها أثر. ظل شخير داود يضج بالصندقة وحده حتى أيقظه الجوع. وجد بقايا تمر فأكل ولم يحفل كأي كائن بدائي بالذباب المتحلق حوله أو بالنمل الذي لا نشك - رغم

استحالة رؤيته في حلكة هذه الليلة المشؤومة ـ في أنه شاركه في أكل بقايا التمر.

حين استيقظ صباحًا لم يجد أمه ولا أباه. كان كشيء جديد وجد نفسه هكذا دونما سبب. إن حشرة ما أكثر نفعًا منه. فهي تمشي لكي تبحث عن قوت يومها أما مشي داود فهو ضرب من العبث، ليس له هدف واضح، تمامًا كحدبته التي لم يفهم سرّ وجودها على ظهره إلا حينما وجد صرصارًا منقلبًا على ظهره يرفس بسيقانه، وبدلًا من أن ينجده من الموت استلقى داود على حدبته واستغرب حين رأى فوقه السماء الصافية أول مرة، ضحك ببلاهة ثم قال:

ـ تو ماله الوادي جأ فوقي؟

التَّفَق

اختفى التفق من البرزة، وكأنما كانت له قدمان يهرب بهما.

كان يزين البرزة، وكنا نتفاخر بأن لدى جدنا تفقًا مثله. بقي الترس والسيف لكن لا أحد يبالي بهما.

في اليوم التالي لرحيل التفق وجدوا بيدارًا مقتولًا برصاصة في رأسه. لم يجدوا الفاعل رغم أن الجميع كانوا حاضرين يوم كان البيدار المغدور يسقي من الفلج. كانوا سيشُكُّون في أي غريب قادم إلى البلدة أنه هو من فعلها. لكنهم لم يجدوا الفاعل، وحين قتل المقهوي بعده بأيام فكروا في اختراع عدو من القرى المجاورة يمكن أن تنسب إليه هذه الجريمة، ولم يجدوا حتى فاعلًا مزيفًا.

بعد قتل البيدار والمقهوي أصبح القتل عادة في القرية، فأصر الجميع على أن تفق البرزة هو من يفعل كل هذه الجرائم، وبما أنه قادر على الهرب فلا شك أنه قادر على القتل والتخفّي كذلك، لكن البحث عن تفق يهرب ويقتل ويختفي ببراعة كان يتطلب مهارات خارقة لا يملكها إلا جدنا المعلم سليمان بن سالم رحمه الله، وهكذا تركنا الأمر لجدنا المرحوم ليفعل بتفقه ما يشاء.

وفي اليوم التالي لم نسمع عن قتل أحد، وكأن الأمر كان يتطلب أن نتذكر جدنا فقط لينتهي هذا الجاثوم الذي كبس على صدورنا طويلًا، ولم يتوقف الأمر على ذلك؛ فما إن دخلنا برزة جدنا في ذلك اليوم حتى وجدنا التفق معلَّقًا عليها دون مَحْزَمٍ أو رصاصة.

التينة

إنها شجرة بعيدة لن تصل الفؤوس إليها، ثم ما الذي يجعل من حطاب يفكر في احتطاب تينة؟ لم أسمع عن أحدهم أنه تدفأ بخشب التين أو أنار به ليله أو اتخذه دعامة لبيته، كما أن زهرة التين لا يجذب رحيقها النحل. إنها بعيدة على كل حال عن السيح. نَمَتْ هناك بجانب البئر فتنةً لبقية الأشجار. تزهو بخضرتها ولربما شربت ماء البئر كي تحافظ على نضارتها.

هكذا نستطيع القول إن التينة بعيدة عن حسابات الحطاب الفقير الذي كان لديه ثلاثة أبناء أكبرهم أصرَّ على مرافقته في ذلك اليوم. ليس على أن أسرد الأسباب التي تجعل من ابن كبير يرافق أباه بحثًا عن الحطب؛ فربما كان يود التعلم من أبيه ليرث منه المهنة بعد موته. وربما شعر بالملل في البيت مع أخويه الأصغرين فأراد أن يخرج من ذلك الملل. الاحتمالات كثيرة وهذه بعضها.

إذن مضى الحطاب مع ابنه الأكبر. لكن ما بال الابن لا يجمع الحطب مع أبيه؟ لقد اتخذ ركنًا بعيدًا وجلس هائمًا في السيح كعاشق. لم يبال الأب بذلك، وربما تعب من تربيته فلم يكلمه أو يستحثه على مساعدته. نحن بحاجة إلى شيء مشوق. شيء يجعلنا نتابع هذا المشهد الممل أمامنا.

«أنا عطشان».

ها قد كسر رتابة مللنا أخيرًا. لكن ما الذي يجعله يشعر بالعطش وهو لم يساعد أباه؟ كان جالسًا على جذع يابس بدلًا من أن يحتطبه. إننا نفاجأ بمثل هذه العبارات. فقد كان من الأولى أن يقولها الأب المتعرق من شدة العمل لا هذا الابن الكسول.

«هناك بئر قريبة بجوارها تينة».

أجابه الأب ببسالة من يهش ذبابة عن وجهه. لكن ما عساه يقصد أن البئر بجوارها تينة؟ هل هشاشة أغصانها تماثل هشاشة ابنه؟ على أية حال لقد قصد الحطاب أن يستحث هذا الكسول.

عدنا إلى التينة التي بجوار البئر مجددًا. لكن الابن لن يعود إلى أبيه؛ لأن البئر كانت جافة، فتسلق التينة ليأكل من ثمارها، ولم يعد إلى أبيه.

«إذن فقد سحرته الجنّية». وعاد الحطاب إلى البيت حاملًا معه وقر الحطب. لم يذرف دمعة ولم يصلّ على ابنه صلاة الغائب. لا بد أنه خاف على نفسه من أن تمسك الجنية به كذلك.

حين عاد الحطاب إلى السيح مجددًا كان ابنه الأوسط معه هذه المرة. ولسبب غير مقنع لكن لا بد من سرده في الحكايات بقي الابن الأصغر في البيت. بالتأكيد أنتم لم تفكروا في ما كان يفكر فيه الحطاب. فهو على الأرجح كان

يختبر أبناءه بطريقة ذكية، فقد كان بإمكانه مثلًا أن يجمع حزمة أعواد مما احتطبه ليختبر قوة أبنائه واتحادهم. لكن ذلك سيحيلنا إلى قصة أخرى مل الحكّاؤون سردها. وهكذا سنبتعد عما كان يدور في ذهن الحطاب. إنه كما قلنا يختبر أبناءهم بطريقة مختلفة. ولولا ذلك لما سردت لكم هذه الحكاية.

رافق الابن الأوسط أباه إلى السّيح. لكنه لم يفعل شيئًا ذا أهمّية. كان كأخيه الغائب شاردًا وكسولًا. لا يعنيه مما كان يفعله أبوه شيئًا. وهكذا لم يول الأب أهمّية بابنه الآخر إذ مضى في الاحتطاب بل إنه لم يحذره من الجنية التي تحرس التينة بجوار البئر حين أشار الابن بأنه عطشان.

إنه لأمر محزن أن يعود الحطاب إلى بيته دون ابنيه. وهذا ما رأيناه في عيني الحطاب الذاويتين. لقد بقي لديه ابن واحد. لن يسمح له بمرافقته إلى ذلك السيح الملعون. وسيهدّده بالجنية التي تسحر كل من يذهب إلى البئر ويأكل من التينة. لكن الابن أصر على مرافقة أبيه.

«سأخلصهم من تلك الساحرة».

يقول كلامًا كبيرًا هذا الصغير. صحيح أننا لا نعلم مدى صغر سنه ولا سن أخويه. لكن يبدو أنه يخبئ ثأرًا قديمًا جديرًا بالتشويق لمتابعة هذه الحكاية المملة. ما الذي سيفعله حقًا؟ ها هو يعطش كما عطش أخواه من قبل. ويمضي إلى البئر بثقة تامة. يتناول بكرة البئر وينزع عنها حبلها. هل سيشنق نفسه؟ إنه يلف الحبل في غصن التينة لكن لا يبدو أنها مشنقة بل أرجوحة. يركبها ويحاول أن يدفع نفسه. من هذه الفتاة الجميلة

التي نزلت عن التينة؟ هل هي الجنية التي حذرها منه أبوه؟ تدفعه بمهارة كأنها معتادة ذلك. يبدوان سعيدين باللعب في غصن هذه التينة التي كانت تهتز بشدة دون أن يسقط منها تين ولا مسحورون. فقد كانت جافة كالبئر التي بجوارها. لن يظهر الأخوان مجددًا كونهما عرفا طريقهما أخيرًا. ولا أخوهما الأصغر الذي كان مستمتعًا بما يفعله مع الفتاة، وسيعود الحطاب إلى بيته سعيدًا لأنه سيتزوج أخيرًا امرأة اشترطت للزواج به أن يكون وحيدًا بلا أولاد.

الجذع

كنتُ شجرةً يانعة في السهل الصحراوي، أرمي الثمار البعيدة للشياه الجائعة، ويستظل بي الرعاة حتى يعودوا إلى الحظائر.

كنت أظن الزمان جاريًا كما تجري الرياح في كل مكان دون أن تستقر في قرنة ما، لكنه استراح ذات يوم في هذا المرعى اليابس ناسيًا كل شيء سواي، فعصف بي، ورماني بلعنته، فتساقطت أوراقي وثماري، وجفّت عروقي حتى صرت جذعًا لا يصلح إلاّ لمخالب الغربان وطمع الحطابين.

هكذا الأشجار تموت واقفة، ومن الممكن أن تتحول بمضي السنين إلى أحجار كما حدث مع إحدى عماتنا التي نقلها الغرباء إلى متحف ليتفرّج عليها الزوار فأمنتْ نفسها من الفؤوس.

لا أرغب في عيشة مماثلة لتلك الشجرة، فأنا من هذا السهل، وأريد أن أبقى فيه إلى الأبد، ولذلك حين جاءت تلك الجميلة إلى السهل أوهمتُها بأني ساحرة متلبسة بشجرة، وأن جنينها الذي في بطنها سيموت إذا ما احتَطَبَتْني، فراحت تحمد الله على ما قلته لها، لأنها لم تكن تنجب قبل ذلك، وجاءت بعد عام تحمل مولودها وكبشًا صغيرًا ذبحته، وراحت تمسحني

بدمه، وهي تتمتم بأدعية تترحم فيها على زوجها الذي مات قبل شهر لأنه دخَّن سيجارة.

أي حياة بعثتني فيه تلك الكذبة! لقد أصبحتُ وليًا صالحًا تقصدني النساء العواقر والمجذومون والمعتوهون، ولو كنتُ إنسانًا لأثريت من الأموال التي نُذِرتْ لي، حتى أولئك الذين لم يجدوا شفاءً من نذورهم كانوا يأتون إليّ يبكون ويعترفون بمعاصيهم وكأنني رب يغفر ويرحم الضعفاء، كانت حماقة البسطاء تحزنني، لكنها لم تُعِد إليّ أوراقي وثماري.

إنني لا أفهم لم يتملص البشر من الحياة ويهرعون إلى الشقاء؟ كلما نمت بالقرب مني شجيرة قطعوها واقتلعوا جذورها، لم تأكلني الأرضة، ولم يقترب مني ثعلب أو غراب، وهكذا صرت ملكًا على كل هؤلاء الحمقى، يعلقون التيجان والقلائد الذهبية عليّ، فلتسامحني يا ربي على كذبتي تلك، إنني أرجوك أن تنزل عليهم نبيًا يخلصهم من هذا الوهم، أو شيطانًا يفتنهم عني.

وكما أغوتني امرأة بالشيطان خلّصتْني امرأةٌ أخرى منه، كانت راعيةً فقيرة كلما أنجبت طفلًا مات إلى أن فارقها زوجها لشؤم رحمها، رأتني محمّلًا بالذهب والفضة، وكأنها دخلت مغارةَ علي بابا، فأخذت كل ما استطاعت حمله، ثم ولّت هاربة.

هجرني الناس، ويبدو أنه لم يعد لهم من الذهب ما يكفي للنذر، شعرت بالوحدة والغربة أخيرًا، لكن ذلك لم يعد

إلـيّ ثـمـاري وأوراقـي الـخـضـراء، أصـبـحـتُ عـرضـةً لـلـنـمـال والثعالب والغربان.

حين جاءت الحطابة الجميلة مرةً أخرى لتحطبني لم أقل لها بأنني سأهب لك ـ مثلًا ـ كبشًا عجيبًا ينفض الذهب، ولم أقل للخبّاز ألا يشتري حطبي الرديء من الحطّابة ليشعل به تنّور الخبز، ولم أمنع ذلك الصبي من سرقة رمادي من التنور بعد خمود ناره.

فعلتُ كل ذلك وأنا لا أدرك أنني أعدت الزمان إلى الوراء بعد أن كان مستريحًا عندي، إذ مضى بي الصبيُّ رمادًا إلى السهل الصحراوي حيث بقاياي هناك، ليخلط به تبغًا رخيصًا ويصنع منها (مضغةً)، كأنه يعيد بها سيرةَ أبيه الذي قتَلَتْه سيجارة.

الجني

لقد فكرتُ طويلًا قبل أن أشرع في إخباركم بهذه القصة، فهناك الكثير من الأمور التي تكتنز بها عقولكم وتؤمنون بها، منها ـ مثلًا ـ أن الأفعى حيوان زاحف لايطير، وأن الجن يسكنون الخرائب، وهو قول لايمكن تأكيده دون أن تروا ذلك بأم أعينكم.

أنا رأيتُ جنيًا يسكنُ خنجرًا قديمًا، لم أكن لأراه لولا أن فركتُ الخنجرَ بليمونة قاصدًا تلميعه، كنتُ على وشك أن أذهب إلى عرس أحدهم، وكان عليّ أن أتمنطق بالخنجر، والعصا في يدي، والمصرّ على رأسي كما يفعل الرجال الذين يقدِّرون الرجال، لكنه ظهر فجأة من نصل الخنجر دون قطرة دم، وهذا ما دعاني إلى التفكير في حدة النصل لا في الخوف من الجني كما فعل علاء الدين.

قلت له: ألم يؤلمك النصل؟ قال: بالطبع لا، فقد سكنته مائة عام. ألستَ خائفًا مني؟ أنا جنيّ. قلت: أعلم ذلك لكنني في عجلة من أمري، هل ستوصلني إلى العرس؟ فقال: أنا جائعٌ الآن، فقرّبتُ له ما تبقّى من غدائي. قال: ماهذا؟ قلت: عيش أبيض وسحناة قاشع وتُمَيْرات للتحلية. قال: لعلك تهزأ بي! قلت: هل تظنني الجنيّ الذي يحقق الأماني؟

وطردته لوقاحته، ثم مضيتُ إلى العرس، وهناك انتظرت طويلًا دون أن تصل وجبة العشاء، ثم ذهبت لأستكنه الأمر، فوجدت مراجل العيش فارغة، وعلمتُ من الطبّاخين أن جنيًّا أكل كلّ ما جُلِب للعرس.

قرّبتُ العيش والسحناة بعد أن أعدتُ الخنجر إلى مسمار مثبّت في المجلس، وأكلتُ مفتقرًا إلى طعم الحماض؛ لأن الليمونةَ الأخيرةَ عصرتُها لتلميع الخنجر.

الحقيبة

حين لمح مواقف السيارات خاليةً شعر بارتياح شديد.

لا يدعو ذلك إلى الغرابة، فهناك أناسٌ يكرهون الازدحام وربما التلوث الناجم عن عوادم السيارات، كان من الأجدى أن نفكر في تلك الحقيبة الثقيلة التي يحملها على ظهره، يا لعقلية الصحفيين الكارثية! إن القول بأنه جاء لينفذ عملية دموية جديدة من تلك العمليات التي نشاهدها على شاشات التلفزيون غير صائب، فمثل هذه العمليات لا تنفذ في الجوامع، إننا نظلم تاريخًا طويلًا من السِّلم المبسوط على هذه البلاد.

لنعد ترتيب الأوراق: رجلٌ يشعر بارتياح شديد لأن مواقف السيارات خالية مع أنه غير مرتاح من حمل حقيبة ثقيلة على ظهره، هذا أمر اعتيادي، ألم تروا من قبل رجلًا يحمل على ظهره جونيَّة ملأى بعلب معدنية؟ الأمر مشابه لذلك تمامًا لولا عامل النظافة الذي أرمُق في عينيه حسدًا واحتقارًا لحامل الحقيبة. إن عامل النظافة ببساطة شديدة لا يرغب في رؤية أحد يدخل الجامع، فهو يجمع ذرات الغبار بلا طائل تحت شمس تعامل رأسه كبوظة ينبغي أن تذوب ليلحسها طفل شَرِه. حسنًا حسنًا. الأوراق اختلطت مجددًا: عامل النظافة لا يحب الرجل

الذي يحمل الحقيبة؛ إذ يبدو أنه سيدخل الجامع ليتبرد تحت مكيفاته، وكأن الجامعَ نُزُلٌ لمسافر عائدٍ من رحلة طويلة، هذا تبرير منطقي إلى حدٍ ما.

من غير المنطق ما يفعله عامل النظافة الآن: فبعد كل نظرات الاحتقار تلك ها هو يصافح حامل الحقيبة! إن وعثاء السفر تهون أمام مصافحة هذا الرجل الوقور ذي اللحية المشعثة والدشداشة القصيرة، ها هو العامل يعود إلى عمله الرتيب تارةً يجمع الحسنات مع ذرات الغبار، وتارةً أخرى يمسح حبات العرق من وجهه ورقبته بمنديله الزنخ.

إن متابعةَ مشهد كهذا تحت شمس حارقة يجب ألّا تنسينا تفاصيل كثيرة، فقبل أن نذكر أن الرجل متجه إلى الجامع بحقيبته الثقيلة كان لا بد من وصف شكله وفقًا لبعض أعراف سرد القصص، فهو رجل ملتح وسيماء الوقار على وجهه ودشداشته، وهكذا سيبدو من المنطق أنه ذاهب إلى الجامع رغم أن موعد أذان الظهر لم يحن بعد؛ إذ ربما كان يريد جمع حسنات كثيرة بتلاوة القرآن قبل الأذان، ففي وسط برودة المكيفات يمكن جمع الحسنات وليس تحت شمس حارقة فحسب.

إنه يعبر أروقة الجامع محنيَّ الظهر، ظلُّه الذي يتبعه صَوَّرَه على حائط الجامع عجوزًا يحمل على ظهره جونيَّةً ملأى بعلب معدنية، لهاثُه المستمر رافقه كقاتل محترف بدأ يفقد صبره لطول ما تتبعه. كان يروح ويجيء من رواقٍ إلى آخر كأنه يبحث عن شيء، هل جاءت السيارات أخيرًا لتملأ المواقف

الخالية؟ هل ذابت بوظة عامل النظافة تحت الشمس؟ هل هو رجل غريب ولا يعرف باب الدخول إلى الجامع؟ هل سقطت علبة من حقيبته فراح يبحث عنها في ذهابه ومجيئه؟ ينبغي أن نسأل في كل شيء وإلا لما كان هنالك معنى لما نراه الآن. من نسأل ومن يجيب عن أسئلتنا؟ ذلك ليس مهمًا. علينا أن نسأل ففي أسئلتنا تكمن الأجوبة حتمًا.

لا لا! لا ينبغي أن نغامر بالقول إنه يبحث عن مدخل الجامع، فقبل أن يقرأ القرآن يجب أن يكون متوضئًا، لكن ما أدرانا أنه جاء إلى الجامع دون وضوء؟ بعض الأسئلة تافهة تصدر عن ضعف في التفكير. هل يبحث عن مكتبة للجامع ليقول لأمين المكتبة: أود أن أهدي إليكم بعض الكتب الموجودة في حقيبتي هذه؟ هل هو كاتب يبحث عمن يقرأ له؟ هل يظن أن أحدًا سيفكر في قراءة كتبه من مكتبة الجامع؟ هل سيجد أمين المكتبة أم أنه كبقية الموظفين مشغولٌ في مكان ما بالبحث عما يبعد به رتابةَ وظيفته؟ إننا نسأل لأننا لا نعرف شيئًا. إنه رجل غريب الأطوار، ولا يوجد تفسير واضح لما يفعله حامل الحقيبة الملعونة تلك.

لقد وجد ثلاجة الجامع أخيرًا. إنه ذكي بلا شك؛ فلم يتعب نفسه مثلنا في الأسئلة ليعرف مكان الثلاجة. كان من الممكن أن يسأل عامل النظافة عن مكانها لأنه أعلم منه بهذا الأمر، ببساطة كان يمكن أن نتلافى كل تلك الأسئلة. إنه عابر سبيل يجمع علب المشروبات المعدنية، بالتأكيد كلما أودع علبة في الجونية فإن شعوره بالعطش يزداد، ولأننا نتحدث عن جونيَّة ملأى بالعلب لنا أن نتخيل أنواعًا مختلفة من المشروبات

تحتفظ بها الجونية وتزيد من رغبته في بلّ ريقه الجاف، لكن ما الذي يفعله هذا الرجل؟ ها هو يسكب ماءً في الكوب دون أن يشربه ويعود إلى حيرته مجددًا.

يروح ويجيء. يروج ويجيء. من الممكن أن يفهم هذا الأمر لو كان بلا حقيبة وكوبٍ مليء بالماء. لقلنا إنه (محتصر) ويبحث عن حمّام. هل سيشرب الماء؟ ربما كان صائمًا وحين رأى الثلاجة نسي صيامه ثم تذكره قبل أن يشرب، هذا احتمال وارد أيضًا، لكن من غير المقبول أن يحمل كوب الماء هكذا وهو صائم. أين عامل النظافة ليُنَبِّه هذا الرجل غريب الأطوار على فداحة ما يفعله؟ لقد أدخلَنا في رواق بعيد، ومن غير الممكن رؤية عامل نظافة هنا.

لا شك أنه يتسلى بإرعابنا. لا المؤذن سيأتي الآن ولا سيارة ستملأ موقفًا خاليًا. لقد اختار توقيتًا مناسبًا. استسلموا من فضلكم فإن حدس الصحفيين الكارثي هو التفسير المقنع لكل ما نراه الآن. لا علب معدنية تملأ الحقيبة ولا وقار في لحيته ودشداشته القصيرة. سيزيل كل ذلك الآن. ها هو يلتفت يمنةً ويسرةً أعلى وأسفل ليتأكد من خلو المكان من المارة والكاميرات الخفية. ينزل حقيبته، ثم يدفع باب أحد الحمّامات باليد نفسها التي يمسك بها كوب الماء. اشهدوا على ما سيفعله هذا الرجل بعد قليل، واحفظوا ذكرياتكم عن الجامع كي لا تطير مع تلك الحقيبة الناسفة، إنها الشيء الوحيد الذي سيبقى منه، أما أنا فلن أبقى مكتوف اليدين، وسأذهب إلى ذلك الحمّام لأوقف هذا الرعب.

دخلتُ الحمّام، ثم أخرجت أمواسًا من حقيبتي، وبدأتُ

حلاقة ذقني المشعثة معتمدًا على مرآة صغيرة كانت جزءًا من مبراة. استحممت. ارتديت دشداشة زرقاء طويلة. وخرجت من الجامع بعد أن سلمت على عامل النظافة مجددًا. يبدو أنه لم يتعرّف إلي مع أني كنتُ أحمل الحقيبة نفسها. عبرتُ مواقف الجامع التي ما زالت خالية من السيارات، وشعرتُ بارتياح شديد.

الراعي

استيقظت مبكرًا، لا لأن رائحة قهوة أمي أيقظتني، بل لأن راعيًا كان يتأخر قطيعًا من الغنم، وبحاجة على ما يبدو إلى تسجيل فعلته في قصة كهذه. تبعه خيالي إلى المرعى حيث كان هناك ذئب في انتظاره، وطلب من الراعي أن يكون كلبًا يحرس القطيع. لكن الراعي اختصر المسألة كلها، وطلب من الذئب أن يكون صديقًا. هناك مثل يقال في مثل هذه المواقف. هل على خيالي أن يتمثله؟ لا. بل علي أن أسجل كل شيء بوضوح كي لا أفوِّت شيئًا، ففرصةُ سلامٍ مستحيلٍ على وشك الحدوث الآن.

جلس الذئب في حجر الراعي مستمعًا إلى لحن نايه الحزين، ثم قال: لقد سئمتُ من السلام لنفعل شيئًا عاديًا؟ قال له الراعي: لا أعرف شيئًا عاديًا سوى الرعي والعزف على هذا الناي، فقال له الذئب: لقد اخترتَ نايك وسأختارُ أنيابي. فدعا الراعي إحدى الغنمات، وقال لها: هذا الذئب يريد أن يأكلك. فردت عليه: لن أوبخك، فالكبش لا يحبني، وأنا ضعيفة في الأصل. فأكلها الذئب كما يفعل الأقوياء، وأخذ الراعي جلدها ثم اندس بين القطيع وهو يثغو.

[illegible]
[illegible]
مبكرًا يا خيال! «يا زاااااباااانااااااااااااا احفووووووظ لنا...».

«أنا سأبدأ» قال سالم علي واضعًا السيجارة بين شفتيه المرتجفتين، وأشعل عود ثقاب سرعان ما انطفأ بعد هبوب نسمة هواء.

«واااالشاااااااعب في الأوطاااااااااااان..».

سقطت السيجارة من بين شفتيه. تناولها بخيت هديب. نفض عنها التراب الذي تلطخت به. وأعطاها خميس سعيد.

«ويّدًا.. ويّدًا.».

أشعل بخيت عود ثقاب آخر. كان يخشى أن ينطفئ. إذ لم يكن في العلبة سوى ثلاثة أعواد.

«بالنفوووووسيبي أوووستاااادااااا.».

بعدما انطفأ العود الثاني جلس الأربعة يفكرون في حل لهذه المعضلة. تذكر ناصر خلفان فيلمًا مصريًا شاهده في التلفزيون. كان الممثل يشعل عود الثقاب وهو يحيط شعلته براحتيه كي لا ينطفئ بينما تقوم الممثلة بسحب نفس من السيجارة إلى أن يخرج أول خيوط الدخان.

«يااااااااعمان نااااحنو من عهدييي النبي..».

تناول ناصر خلفان السيجارة من يد خميس سعيد. أومأ

الشاوية

سيماء الجمال لم يفارق سحنتها الحنطية (إلى رغوية) وة
الطقس وبرودته في هذه المرتفعات الجبلية النائية. مضى يومان
إن ما يحدث هو الربيع بعينه. خضرة تذكرك بالجنة.
على مسيرها خلف قطيع الأغنام وهي تتكيء على (محجانها)
عصافير لا تدفعك إلى التفكير في الحرية لأنك حر. لا ترى
وتحمل (سمّتها) السعفية على رأسها. كانت بين حين وآخر
في اللون الأحمر سوى بصمة شفاه حبيبتك الحلوة. ها أنت
تتحسس صدرها الممتلئ الذي يؤلمها. فهي لم ترضع طفلها ذا
تجلس هانئًا تحت هذه الظلال. تعرف نأيك لأنك أمنت غدر
الأربعة أشهر مذ غادرت البيت وقد تركته لأمها. رغم الآلام
الذئب لشياهك. لا تأبه لاختلال التوازن البيئي؛ لأن الخير
كان عليها أن تجد ما يكفي من الكلأ أقله لمائتي رأس. فقدت
وحده ما يستحق العيش.
كلبها الأسود قبل عامين ولم تجد بديلًا عنه.

أشياء كثيرة من حولك تدفعك إلى التفاؤل. وتقول في

نفسك: لن أغادر هذا الربيع إلا إلى جنة الله. حيث لا منافقين
أخيرًا بلغت (سيح التيب) الذي تنتشر فيه أشجار السمر.
ولا سكارى ولا فقراء. قد تبدو فلسفتك أنانية بعض الشيء
فرشت السمة الدائرية تحت سمرة. تشابك السعف في السمة
وأنت ترى انتصار الخير على كل شيء. لكنك محق في ذلك.
غير منتظم بسبب كثرة الثقوب. لهوت بالمحجان على السمرة
إذ يغصب الشر كل شيء حيثما يحل. أما الخير فيعطي. ولا
فتساقطت أوراقها الخضراء وأزهارها الصفراء. تجمعت الأغنام
يخص أنت لا تفكر في شيء تمامًا فقد زالت همومك التي
حول السمة وراحت تجتر الغنيمة الشحيحة. مضت الشاوية
كان الشر يثقلك بها. وبت خفيفًا كظل فراشة. وهذه الألحان
بمحجانها إلى سمرة أخرى. توقعت ألا يسلم قطيعها من
التي يعزفها نايك بشرى بهذا الخير العميم.
هجمات الذئاب على هذه الأرض. ذئبة كانت تقطر دمًا حاولت

الهجوم على [illegible] بمحجانها إلى [illegible]
لم [illegible] ثقيلة [illegible] الربيع [illegible]
[illegible]

إن كنت تأخرت كثيرًا أيها الربيع. فقد لزم الإنسان كي يخطئ ويصحح أخطاءه عددًا لا يحصى من السنوات. كان مخلوقًا جديدًا في الجنة لا يعرف الربيع. كان أحمق إذ فكر في الخلود. لأنه لم يفهم الربيع جيدًا. وظن أن التين يستر عورته. أوليس التين جزءًا من الربيع الذي عاشه المخلوق الجديد في الجنة؟

لم يفهمه وظن أن الخلود يكمن في مكان آخر غير ربيع الجنة، وهكذا بدأ الشقاء، وتتابعت سلسلة الأخطاء البشرية لدرجة أنه اخترع ربًّا غير الذي خلقه. جرب الصيد وجمع النبات، وحاول أن يكون فنانًا، واخترع شتى أنواع الأسلحة ليبرر مخاوفه ممن سلبوه ربيعه. لكنه لم يجد في الأرض ربيعًا كربيع جنته. نسي الربيع تمامًا خلال تلك السنوات وانشغل بحياته الفانية يعيش ويأكل وينجب ويربّي أولاده ويحميهم من اللصوص والقتلة الذين يغذيهم الشر.

ثم جاء من يخبره أنه سيعود يومًا إلى الجنة حيث الربيع الدائم. لم يصدق في أول الأمر وأنكر هؤلاء المخبرين واتهمهم بالكذب والجنون. فكيف يعود إلى هناك بعد كل ما ارتكبه من أخطاء؟ أيكون الربيع قد حنّ أخيرًا إليه؟ هل مات الشيطان الذي كان يمنعه من حق العودة؟ هكذا نَمَتْ الرغبة لديه. وراح يطارد أعوان الشيطان يسجنهم ويعذّبهم ويقتلهم. المهم أن يعود إلى ربيعه مهما كان الثمن الذي سيدفعه. لكن تناسل الشيطان السريع أفقده صوابه.

دعاه الأمر إلى أن يتأمل نفسه، فانسحب إلى الحياة

ومضى يصنع ربيعه بنفسه. وجد أن الأمر أسهل من مطاردة الشيطان، وهكذا بدأ يعرف الخير ويصادقه. كان الخير شيئًا ضئيلًا فقيرًا معدمًا لكن قلبه وعقله يحملان بذور ربيع جديد. بدأ الإنسان يستكْنِهُ هذا الخير محاولا الحصول على بذور الربيع التي لديه. بدأ بالتفكير في صنع الربيع الجديد بمعاونة الخير. كان بعضهم ما يزال يطارد نسل الشيطان أملًا في الرجوع إلى الربيع. لكن الخير دفعه إلى تجاهلهم. شيئًا فشيئًا حل الربيع في الأرض. هناك من يقول إنه كان بفضل بذور الخير، وهناك من يرى إن قتال نسل الشيطان هو ما أوجد ربيع الأرض. هرب الشر أخيرًا. ها قد وَصْلتَ إلى كمالك الذي توصف به في المأثورات. أنت سيِّدُك ولا عباد لك. فما حاجتك إلى ربيع الجنة؟ امكث هنا حيث ربيع الأرض.

ما تلك السكين التي تحملها؟ هل ستقتلني؟ ها أنت تتخلى عن ربيعك الذي استغرقك كل هذه السنوات. افعلها إن شئت وابدأ أخطاءك الجديدة، فأنا هو الشيطان!

السيجارة

«لا شيء أسهل من الوقوف». قال ناصر بن خلفان وهو يتذكر طابور الصباح في المدرسة.

قالوا له بأن الرواتب ستزيد. عليه أن يقف في الساحة فحسب. وإن لزم الأمر يرفع لافتة لا يهم معرفة فحواها. سيتحمل كل شيء من أجل زيادة راتبه.

قبل أن يمضي قال أبوه خلفان بن ناصر: لا تنس أن تسحب راتبك كله بعد أن تعود. اليوم هو موعد نزول الرواتب.

قالت أمه أصيلة بنت حمَد: عد أيها الأحمق. أي راتب سيزيد ولمّا يرفعوا أسعار البترول؟

أمام أقرب محطة وقود في طريق الباطنة أوقف ناصر بن خلفان سيارته. في الساعة السابعة صباحًا بدأت نشرة الأخبار الأولى من الراديو. لا مراسيم جديدة يستقبل بها يومه. أخبار القتل في العراق مستمرة. الطقس سيكون مشمسًا ولا غيمة واحدة تفرش سقف الأرض. امتلأ خزان الوقود بالبترول. لم يرفعوا سعر البترول حقًا كما كانت تقول أمه لكنهم سيرفعون الرواتب من حيث سيقفون هناك.

إنها المرة الأولى التي يركب فيها سيارته منطلقًا إلى

مسقط أيام عمله. لكن ناصر بن خلفان لم يقصد الوزارة هذه المرة لكي يدخل المكتب المحتشد بخمسة موظفين يقضون أيامهم في قراءة الصحف وشرب القهوة. بل ليقف في حي الوزارات هناك حيث ترتفع ساعة أعلنت منذ فترة طويلة بدء العد التنازلي لدورة في الألعاب الشاطئية.

كان من الممكن أن يكون ناصر بن خلفان الآن في الباص الذي استأجره مع جملة موظفين من الباطنة ليقلهم إلى العمل، كان الوحيد الذي لا ينام أو يتثاءب باستمرار في الباص. فهو يستيقظ مبكرًا إذ تتسلل إلى أنفه روائح القهوة والقريصات المحلاة بالعسل التي تعدها أمه بعد أن يكون قد عاد من المسجد مصليًا الفجر. ثم يخرج من بيته متمصّرًا بمصر بالٍ إن دققت جيدًا فيه فستجده باهت اللون مليئًا بالثقوب. أما رائحة العطر العربي ـ الذي يرش منه مرات كثيرة ـ فبالكاد تفوح من دشداشته ولا تلبث أن تتلاشى حين يصل الباص.

لم يكد يتحرك حتى اضطر إلى الوقوف بعد أن أشار الضوء الأحمر إلى ارتفاع حرارة السيارة. إنه أحد الأسباب التي تزيده إصرارًا على الوقوف في حي الوزارات اليوم. كما أنه أحد الأسباب التي تجعله يركب الباص. فالسيارة من طراز ثمانينيّ لا تكاد توصله إلى أبعد من عشرة كيلومترات. وما في جيبه لا يكفي لإصلاحها في كراج.

«لقد تأخرت كثيرًا. هل سينتظرونني؟»

لا أحد يعرف شيئًا بعد. لكن إن كانوا لن يفعلوا شيئًا سوى الوقوف فحسب فسيبدو المشهد كأنهم ينتظرونه حقًا.

نزل من السيارة. وقف بجانبها. ثم مر باص الأجرة الذي ظن ناصر بن خلفان أنه سيسبقه. لم يقفوا في المحطة هذه المرة ولم يلمحه أحد فقد كان الركاب يستثمرون ثلاثة أرباع الساعة في النوم.

أخذ ناصر بن خلفان ينزع مخاطه اليابس من أنفه. كان يحلو له فعل ذلك حين يخلو المكان من أحد يراقب فعلته الصبيانية هذه. بالرغم من أنه دس بضع ورقات كلينكس في مخباة دشداشته إلا أنه كان يستمتع بنقب فتحتي أنفه بسبابته ثم يمسح بما يخرج منها في إزاره. أخرج علبة السجائر. لم يبق فيها سوى سيجارتين. تردد في الذهاب إلى محل المحطة ليشتري علبة أخرى.

أطفأ عود الثقاب وراح يسحب نفسًا من السيجارة الأولى. لم يتخل عن عادته السابقة في إشعال السجائر بعود الثقاب. علينا العودة مقدار عشرين عامًا كي نعرف كيف امتص أول سيجارة. عادة ما يفعل ذلك حين يشعل سيجارة. فمع توقف سيارته الطويل أقله لنصف ساعة لن يدوس عقب السيجارة قبل أن يذهب بعيداً في الذكريات حين اضطرته كراهيته للطابور إلى التدخين. كانوا أربعة: خميس سعيد وسالم علي وبخيت هديب الذين يدرسون في الصف السادس وناصر خلفان الذي كان أصغرهم في الصف الخامس. محمد علي البنغالي الذي يعمل بيدارًا عند الشيخ هلال بن سعود أعطاهم إحدى سجائره بخمسين بيسة كانوا قد وجدوها في أرض المسجد. أخرج ناصر خلفان علبة الثقاب التي سرقها من مطبخ بيتهم. يداه تنتفضان كمن أصيب بشلل فجائي. جلسوا عند بضع

جهنميات زرعت عشوائيًا في ركن خلفي من المدرسة واتخذوها مخبأ لفعلتهم بينما كان الطابور قد بدأ في الإنشاد:

«يا رااااباااانااااااااااااا احفوووووظ لنا...».

«أنا سأبدأ» قال سالم علي واضعًا السيجارة بين شفتيه المرتجفتين، وأشعل عود ثقاب سرعان ما انطفأ بعد هبوب نسمة هواء.

«واااالشاااااااعب في الأوطاااااااااااااان..».

سقطت السيجارة من بين شفتيه. تناولها بخيت هديب. نفض عنها التراب الذي تلطخت به. وأعطاها خميس سعيد.

«ويّدًا.. ويّدًا.».

أشعل بخيت عود ثقاب آخر. كان يخشى أن ينطفئ. إذ لم يكن في العلبة سوى ثلاثة أعواد.

«بالنفوووووسيي أوووستااااداااااا.».

بعدما انطفأ العود الثاني جلس الأربعة يفكرون في حل لهذه المعضلة. تذكر ناصر خلفان فيلمًا مصريًا شاهده في التلفزيون. كان الممثل يشعل عود الثقاب وهو يحيط شعلته براحتيه كي لا ينطفئ بينما تقوم الممثلة بسحب نفس من السيجارة إلى أن يخرج أول خيوط الدخان.

«ياااااااعمان نااااحنو من عهدييي النبي..».

تناول ناصر خلفان السيجارة من يد خميس سعيد. أومأ

لبخيت هديب أن يقلد الممثل كما في الفيلم. أما هو فسيقلد الممثلة.

«آآآبشري قابوس جاااء..».

سحب نفسًا قصيرًا. وكممثلة مبتدئة لم يتقن رسم المشهد الذي شاهده. أخذ يسعل بشدة.

«تحيااا سلطناااااااة عمان حرة»

داس ناصر بن خلفان عقب السيجارة. أعاد تشغيل سيارته وانطلق مسرعًا إلى حي الوزارات. كان مبللًا بعرقه. أخرج أوراق الكلينكس ومسح بها وجهه. أدار الراديو إلى إذاعة محلية أخرى:

«صباح التفاؤل. صباح الهمة والنشاط. وأكيد تحية إكبيرة للمتجهين إلى أعمالن. طبعًا مستمعينا قضية اليوم قضية شائعة تهم شريحة إكبيرة من المواطنين. وأكيد راح نناقشها معكن لكن بعد هالفاصل. فخلكن ع السمع».

دهمته رغبة التدخين مجددًا. لكنه راوغها بإمساك الهاتف ليرسل رسالة منه.

«ناصر بن خلفان بيقول: مشكورين على هذا البرنامج الرائع. شكرًا يا ناصر... وبدك تعذرنا لأننا ما بنقدر نقرأ رسالتك. لأنّها بعيدة كثيييير عن موضوعنا لهاليوم. وبنوعدك إنّا راح نطرح موضوعك في نهار جديد... رسالة جديدة من هيفاء اللي بتقول..».

«بنت الـ.......».

أغلق الراديو. أطلق زفرة طويلة أتبعها بشتائم للمذيعة الشامية. تناول السيجارة الأخيرة في العلبة. أنزل زجاج النافذة الأمامية. أخرج منها يده السمراء النحيلة. اختلط دخان السيجارة بدخان عوادم السيارات. نَقَر السيجارة ناثرًا رمادها في الهواء. حين اجتاز دوار بيت البركة رمى عقب السيجارة وأعاد يده اليسرى إلى المقود.

السيل

ليلة العيد أمطرت بشدة. خشيت أن يغرقني السيل وأنا بداخل كوخي البسيط المصنوع من خشب زور النخيل. خرجت من الكوخ وأنا أدعو الله على ألا تكون جائحة تغرق الناس فينقلب فرحهم إلى غم ونكد. حملت معي قداحتي وغليوني. في الطريق صادفت رجلًا غريبًا كان يحمل جواني عيش على ظهر حمار. يبدو أنه جاء بها من البندر. سلمت عليه ولم أسأله إلى أين يتجه؟

مشيت حذاء الوادي. تأملته إلى أن توقف المطر. مر جذع نخلة. مرت شاة نافقة قد انتفخ بطنها. ثم مر مندوس فركضت نحوه وكان الوادي قد خف هديره. حملته. كان ثقيلًا. ربما يزن منًّا. فتحته فإذا بداخله كتاب. أخذت أقرأ صفحة فأخرى إلى أن شعرت بالملل وقفلت عائدًا إلى كوخي بالمندوس. في الطريق وجدت معيوف بن سالم وهو يحمل جونية عيش خَرِسَة. ربما تزن منًّا. فقد كان ظهره محنيًا من حملها بقدر انحناء ظهري من حمل المندوس. أخبرني أنه وجدها سائحة مع الوادي وقد انغرست فيها أخشاب من زور النخيل. وبينما هو يزيل الزور من الجونية وجد بها خاتم فضة عليه كتابة هندية. قلت له: لعل الجونية جاءت من الهند. فلم يكترث.

مضيت بمحاذاة الوادي نحو كوخي. لم أجد سوى بقاياه. فقد أغرقه المطر وساح أكثر أجزائه في الوادي. أخرجت الكتاب ثم أشعلت النار في المندوس لأتدفأ. أخرجت غليوني ودخنت. فتحت الكتاب فذكرني بأنني لم أوزع زكاة الفطر. وهل يملك الفقير ما يزكي به؟ وبينما كنت أنتظر من يوزع علي جونية عيش في ليلة العيد عاود المطر هطله بغزارة كبيرة هذه المرة وسمعت من بعيد هدير الوادي مجددًا.

الشاويّة

سيماء الجمال لم يفارق سحنتها الحنطية رغم قسوة الطقس وبرودته في هذه المرتفعات الجبلية النائية. مضى يومان على مسيرها خلف قطيع الأغنام وهي تتكئ على (محجانها) وتحمل (سمّتها) السعفية على رأسها. كانت بين حين وآخر تتحسس صدرها الممتلئ الذي يؤلمها. فهي لم ترضع طفلها ذا الأربعة أشهر مذ غادرت البيت وقد تركته لأمها. رغم الآلام كان عليها أن تجد ما يكفي من الكلأ أقله لمائتي رأس. فقدت كلبها الأسود قبل عامين ولم تجد بديلًا عنه.

أخيرًا بلغت (سيح الذيب) الذي تنتشر فيه أشجار السمر. فرشت السمة الدائرية تحت سمرة. تشابك السعف في السمة غير منتظم بسبب كثرة الثقوب. هوتْ بالمحجان على السمرة فتساقطت أوراقها الخضراء وأزهارها الصفراء. تجمعت الأغنام حول السمة وراحت تجتر الغنيمة الشحيحة. مضت الشاوية بمحجانها إلى سمرة أخرى. توقعت ألا يسلم قطيعها من هجمات الذئاب على هذه الأرض. ذئبة كانت تقطر دمًا حاولت الهجوم على شاة فعاجلتها بضربة من رأس محجانها المدبب. ثم هشمت رأسها بحصاة ثقيلة بالكاد استطاعت حملها. سمعت الشاوية بعد ذلك عواء جرو بدا أنه حديث الولادة. جلست عند

رأسه تناولت ثديها الأيمن وألقمته الجرو الأسود الذي عادت الحياة إليه بعد أن أوشك على الموت. تدفق الحليب من الثدي وكانت الشاوية تتنهد بارتياح كلما رشف الجرو جرعة منه وبدأ الألم يزول شيئًا فشيئًا. ثم ألقمته ثديها الآخر ولم تهدأ حتى أفرغ الجرو الحليب كله.

تبعها الجرو حين قامت إلى سمرة أخرى تخبطها بالمحجان. امتلأت سمة الخباط بأوراق السمر مجددًا. نظفت بوقايتها رأس المحجان الذي امتزج فيه دم الذئبة بخضرة الأوراق فأضافت إلى بقع الوقاية الكثيرة بقعة أخرى ولم تنتبه إلى أن قطرات من حليبها زادت البقعة.

كان الجرو أضعف من أن يتبعها إلى حيث تسير. تناولت السمة ولفت الجرو بها ودستها تحت إبطها ومضت تتكئ على المحجان مجددًا. كانت تتحسس رأسه المدبب بين حين وآخر وتتلذذ بمتابعة انحناءته وهي تتذكر الدم الذي انبثق منها قبل ما يقارب العام. حين دخل عليها (ود نهشة) في تلك الليلة المريبة وهي خائفة من طقوسها التي لا بد أن تنتهي بانبثاق الدم.

الطفلان

السماء ترعد لا رغبة في إحياء هذا المرعى اليابس. بل في معاقبة هذين الطفلين اللذين جمّعا برعونتهما كل هذه السحب الغاضبة. كانت جيشًا عارمًا راح يحارب بسيوف المطر الغزير رأس الطفلين. تحت صخرة عظيمة واجها كل ذلك الغضب بابتسامات بريئة.

من الفجوة التي اندسا فيها قال الفتى الذي كان قبيل المطر يرعى الشياه والذي سيعرفه الناس بعد سنوات بود نهشة:

ـ لو كنت أعرف أن الناي الذي عزفته سيجلب المطر للمرعى لفعلتها منذ زمن.

ـ سينبت الروغ في الوادي وسأصنع من قصبه نايًا أفضل من نايك.

ـ أنت فتاة لن يسمحوا لك بذلك.

ـ أنا بدوية. بإمكاني أن أفعل ما أشاء. عندما أكبر لن أحلب الشياه وأنسج المناسيل. بل سأثقب الروغ وأصنع نايات للرعاة.

ـ أما أنا فلست أكثر من شاوي يرتحل من مرعى إلى

آخر. حياتي أسخرها لأجل هذه الشياه. ولن أخرج على طبيعتي.

لم يعلما أن الصخرة التي التجآ إلى مغارتها كانت ملتقى لعاشقين التقيا سرًا. وبينما كانا يتبادلان نظرات الشوق أراد الفتى استعراض مهارته أمام حبيبته فرمى بحصاة بعيدًا سقطت على رأس جني نائم. فاستيقظ هذا الأخير غضبان وجمدهما صخرتين ملتحمتين. سيأتي من يقرأ قصتي هذه بعد زمن ليكذبها مدعيًا أنها محض خرافة فلا يعقل أن لجميع جبال عمان وصخورها قصة واحدة تروى من الشمال إلى الجنوب. لا تصدقوا مثل هذه الهرطقات فكل صخور العالم من نحت العشق الذي نشأ في السيوح والوديان والشعاب لتعذر وجوده في الأحياء الموبوءة بالبشر الحاقدين.

الغريب

لست غريبًا على أحد هنا. فأنتم تسمونني (فلج العلاية). وأنا أعرف ما أفعله جيدًا. أمي تغذيني بالمياه فأرسله إلى المزارع لتروي به الأشجار. هذا ما كنت أفعله والآن صرت أروي القصص العجيبة التي لا يصدقها البشر رغم أني كنت شاهدًا عليها. لكنني لن أتوقف عما تسمونه «ثرثرة فلج عجوز». سأموت يومًا ما وربما لن أعود إلى الحياة مجددًا بعد أن عدت إليها من قبل في قصة عجيبة لم تَرَوْها ولم تروِها جداتكم ولم يخبركم آباؤكم بها عندما علموكم كيف تلعبون هذه اللعبة التي تتسلون بها الآن على جدران (مجازتي).

كنت شابًا مليئًا بالعنفوان قبل مئتي عام، أنجز أعمالي بدقة وانتظام. ثم حلت الكارثة. هامة ذات سبعة رؤوس احتلتني. حبست مياهي عن (العلاية). فتوقفت الحياة فيّ وفيها. نعم لقد متّ. والأفلاج تموت إذا ما حلت الكوارث بها. لم يدر أحد من أين جاءت تلك الهامة. كان هناك مسجد تمرّ ساقيتي بجواره. ويغتسل منها المصلون. وكان على البلدة شيخ يعيش في بيتٍ عوْد. وللشيخ بنت جميلة رفضت الزواج بمن تقدم لخطبتها من أهل البلدة. كانت وحيدة أبيها توفيت أمها بعد ولادتها بقليل. وكان شيخ العلاية في عداء مع شيخ بلدة السفالة الذي كان راعيًا قبل ذلك لشيخها السابق. ذاك الذي

مات في ظروف غامضة ولم يترك سوى فتى يحب خيله أكثر من أي شيء آخر. فتزوج هذا الراعي بالأرملة وصار شيخًا على السفالة. ولم يعرف لفتى الخيل أثر بعد ذلك.

يقولون إن الفتى ظل هائمًا على وجهه بعد أن انتزع الراعي كبد خيله ليشفي بها زوجة الشيخ المريضة بعد أن أوهمها أنه (مْعلّم) حاذق وأن سبب مرضها في الخيل المتلبسة بالجن والتي كانت تتكلم كالإنس. ويقولون إن الراعي حين كان يسرّح الغنم والشياه في المرعى كان يلتقي جنًا في مغارة بالوادي. وبفعل سحره الذي لقنه إياه شياطينه وصل إلى ما وصل إليه. أؤكد لكم أن هذا الكلام صحيح. فأنا فلج غيلي تورويني مياه الوادي الذي أخبرني بما كان يحدث في مغارته. لم أخبر أحدًا بما حدث لأني لم أكن أعلم أن الكارثة سوف تصل إلى العلاية.

لم يكن بالسفالة فلج مثلي. فقد كانت بلدة صغيرة أشبه بتجمعات شوان قرب مكامن المياه الشحيحة. وكان أهلها يستقون من الطويان ويروون منها أغنامهم وشياههم. لم يهتم شيخها الجديد بحفر الأفلاج كما اهتم بعمارة بيته العود. وحين أراد استطناء بضع نخلات من العلاية رفض شيخها ذلك بحجة أنه لا يطني نخيله لأشباه الشيوخ. وفي اليوم التالي انقطعت مياهي عن العلاية. كأن سيفًا بتر شريانها. لم يعرفوا السبب في البدء وحين تتبعوا الأمر وجدوا هامة ضخمة ذات سبعة رؤوس مستلقية في اللجل.

هكذا متّ زمنًا طويلًا، وأوشكتْ العلاية على الموت

مثلي. إذ اشترطت الهامة لعودتي إلى الحياة أن يقدموا لها القرابين: مرجل عيش وذبيحة كاملة وبنت عذراء. رفضوا كلهم في أول الأمر. وما إن رأوا موت نخيلهم حتى عدلوا عن قرارهم. بدأوا بالتخلي عن بناتهم واحدًا واحدًا. لم أعد إلى الحياة حقًا. كنت كسجين يعذَّب بإغراق رأسه في الماء مرارًا. فما إن تأخذ الهامة قربانها حتى تعود إلى خنقي مجددًا بالجلوس على اللجل.

كنت شاهدًا على كل شيء رغم اختناقي. لم يكن أهل العلاية رعاة كأهل السفالة. ولذلك اضطروا إلى شراء الأغنام والشياه من السفالة بعد أن نفد ما كانوا يربونه من مواشٍ. كانت العلاية تهوي كما تهوي الدلاء في الطويان الميتة فلا تعود بالماء. وكان جشع الهامة يزداد كل يوم. لم أكن لأموت وحدي. فقد مات عشاق كثر وهم يتذكرون مواعيدهم السرية بقرب السواقي مع حبيباتهم القرابين في سبيل حياة لن تلبث أن تموت. هجر كثيرون العلاية وراح شبانها يتزوجون من بنات القرى المجاورة. ولم يبق فيها إلا شاب لا يعرف أصله.

حل في البلدة منذ سنتين وعمل (جفّافًا) للمواقد. ولأنه كان غريبًا لم يهتم بالرحيل عن العلاية. فلا أهل له يرحل إليهم. ولا يمكن أن يزوجه أهل العلاية بإحدى بناتهم لحقارة مهنته. كان شابًا فارع الطول ملامحه حزينة تبعث الأسى في كل من يتأملها. لم يكن للغريب مكان يأوي إليه. وحين كان يخدم في البيت العود لفترة متأخرة من الليل لا يسمح له شيخ العلاية بالمبيت في العراء. فيطلب الغريب من الشيخ أن ينام في الإسطبل ليذهب ما كان به من حزن في الوادي.

أخبرني الوادي أنه دائمًا ما يرى جفّاف المواقد يبكي بحرقة على دك تراب. وأنه كان يسقي ذلك الدك كما لو كان شجرة خضراء. ويزينه بالحجارة التي يجمعها من بطون الوادي. كانت الحجارة المغروزة في الدك أشبه بشكل جمل أو خيل كبيرة. بكاؤه حزين كالتغرود الذي ينشده الحداة على ظهور الخيل. ما إن ينهي تغروده حتى يعود إلى العلاية غاسلًا حزنه بكمّ دشداشته.

توقف الزمن في العلاية أو كاد. وبانت تجاعيدها بعد أن أصبحت مليئة بالعجائز والكهول. وجاء دور شيخها في تقديم قربانه للهامّة. لم ينزعج جفاف المواقد حين رأى ابنة الشيخ تبكي بحرقة أمام ساقيتي والمرجل يتصاعد منه بخار العيش الناضج توًا. كان صامتًا يراقب المشهد بلا مبالاة حتى أقبل الشيخ يقود خيله ممسكًا بخنجره كي ينحرها أمام الهامة.

انتفض الشاب وأمسك يد الشيخ قبل أن تفعلها. وما إن خرجت الهامة برؤوسها السبعة حتى ولى الشيخ هاربًا تاركًا ابنته لمصيرها المؤلم. وكما لو كان عملًا من أعمال الجن رمى الغريب الفتاة على ظهر الخيل لتركض بها بعيدًا.

«يا غريب كون أديب» ترجرج الماء حين ظهر أحد الرؤوس السبعة مخاطبًا الشاب.

تناول الشاب الخنجر فنحر الرأس ثم قطعه.

«يا غريب كون أديب» لم يفد تهديد الرأس السابعة في ألا يلحق بالرؤوس الستة التي تساقطت على ساقيتي ملوثة مائي بالدم. اعتلى الشاب ساقيتي واضعًا رجليه على كلتا ضفتيّ ثم رمى بنفسه في اللجل مصوبًا خنجره بدقة إلى كبد الهامة.

اندفعت مياهي القانية حتى فاضت السواقي كما يحدث في كل مرة يجري فيها الوادي. ظلت الحمرة تصبغ مياهي أسبوعًا. لم تكن عودتي إلى الحياة هي ما أعاد شبان العلاية إليها بل قرار شيخ الحارة بتزويج ابنته الوحيدة بمن قتل الهامة. كلهم ادعى أنه هو من قتل الهامة وراح يقفز على جدار المسجد حيث طبع (جفّاف المواقد) كفه التي اصطبغت بدم كبد الهامة. كانوا كمن يجرب فردة حذاء لا تسع رجله الصغيرة.

كنت الشاهد الوحيد على ما فعله الشاب الغريب جفّاف المواقد بالهامة. حين أمسك بكبد الهامة وضرّج يده بدمائها ليعتلي جدار المسجد ويعلق عليه الحقيقة التي لم يصل إليها أحد سواي. لم تتزوج ابنة الشيخ بأحد بعد ذلك وظلت منتظرة فارسها الذي هرب بخيل أبيها بعيدًا دون أن يفكر في أخذ ثأر أبيه من الراعي الذي أكل كبد خيله فدفنها في بطن الوادي.

هذه هي القصة وأنتم يا صبيان العلاية ـ بعد خمسين عامًا من تلك الحادثة ـ تلهون بلعبة أسماها آباؤكم زورًا (الجدار). علّموكم كيف تأخذون قبضة طين ثم تقفزون قفزة لا يستطيع خصمكم الوصول إليها. وإذا وصلوا إليها بالحيلة والمكر تنعتونه بـ (السفلة) وتضربونه إلى أن تصلوا به إلى أطلال البلدة القديمة التي كانت تدعى السفالة والتي هجرت بعد موت شيخها المفاجئ في قصة عجيبة أخرى سأرويها لكم يومًا ما.

الفارس

يروون عنه أنه كان فارسًا في الشرطة أو في الخيالة، أنا مثلكم لا أعرفه تمامًا، فقد كنت واقفًا هنا قبل ساعة وراء لوحتي موشكًا على رسم نخلة يابسة في مزرعة مهجورة، لم يتبق من اللوحة سوى زورة واحدة.

ثم جاء، ودون أن يلقي علي السلام لف ظهره بحبل الطلوع وصعد النخلة حاملًا معه مشرطًا، كنت أستغرب كيف استطاع أن يحتضن بحبله ورجليه النخلة التي لم يكن بها كربة واحدة، كان متحدًا فيها كحبيب عاشق. ظننته مجنونًا؛ فسرعته في التسلق توهم الناظر إليه أنه سيبلغ الشمس، لكنه لم يفعلها وتوقف عند الزورة نفسها التي أخّرتُ رسمها.

أمسكها بقوة وباليد الأخرى مرر المشرط عليها، وهكذا لم يبق من النخلة سوى جذع واقف لأنها كانت زورتها الأخيرة. رمى الزورة في الأرض، وبالسرعة نفسها التي صعد بها النخلة نزل منها، تناول الزورة، ووضعها بين رجليه ولف حبل الطلوع عليها كلجام، ومضى بعيدًا عن المزرعة مخلفًا وراءه غبارًا كثيفًا وحيرة في نفسي ولوحة غير مكتملة.

القرطاسة

جاءني خط من عُمان بأن زوجتي خديجة ماتت من أثر حمّى وأنا في سفري إلى زنجبار وأنه ليس لدي شيء أرثه منها لأنها لم تخلّف شيئًا لورثتها. رحمها الله. كنت قد كتبت صكًا لها ببيع مالي وبيتي الذي عاشت فيه إلى موتها. لم أعطها المال ولا البيت وألزمتها ألا تخبر أحدًا بقصة البيع وخصوصًا أباها القاضي حمود بن سليمان. أخذت أصل الصك وأودعت قرطاسة أخرى نظيرة منه عندها كي تطمئن نفسها إلى صحة البيع. وتركت عندها شيئًا من الدراهم كي تقيم بها نفسها ريثما أعود من رحلتي فأتم البيع لها.

لقد صبرتْ معي كثيرًا هذه المسكينة. لم يكن العيب فيها بل فيّ. ولذلك لم يرزقنا الله ذرية. أما سالمة التي تزوجتها بزنجبار سرًا عن أهلي بعُمان لم تحتمل عقمي ثلاث سنين وطلبت الطلاق. بعدها شعرت بالذنب لأن خديجة صبرت علي ولم يكن بها عيب فأحببت أن أكرمها وأعطيها الصك. لكن شاء الله أن تموت قبل ذلك.

أنا الآن عائد إلى عُمَان على ظهر المركب نفسه الذي جئت منه قبل خمس سنين. بعد وصول المركب بكيت عند قبرها كما لم أبك من قبل. ثم مضيت إلى بيتي ومالي. لكن

ثمة أمرًا غريبًا في البيت. هل صبغته المرحومة قبل وفاتها؟ وهل هي من بنى تلك الزريبة بقرب المال؟

سمعت أصواتًا. ظننته القاضي حمود فألقيت السلام.

ـ وعليكم السلام. تفضل أيها الغريب.

نويت أن أهوي بالعصا على هذا البيدار الذي يخاطبني بالغريب لأؤدبه.

ـ تفضل أيها الغريب. ما طلبك؟

ـ هذا البيت بيتي والمال مالي. من أنت حتى تخاطبني بهذه اللهجة أيها البيدار؟

ـ أنا سيد هذا البيت. اشتريته من صاحبته قبل شهر.

ثم مضى إلى الداخل وخرج وفي يده قرطاسة ناولني إياها. قرأت فيها صكًا ببيع المال له، ناولني قرطاسة أخرى فيها صك ببيع البيت. كان الخط خط أبيها القاضي والشهود أعرفهم كلهم. وعليه ختم الوالي.

أخبروني أن خديجة كانت قد استدانت من البيدار دراهم كثيرة مقابل رهن البيت والمال، ولما لم ترجع ما عليها من الدراهم بحسب الشرط حكم أبوها القاضي بحق البيدار في المال والبيت. ثم عاشت أكثر حياتها محمومة تبعث الخطوط إليّ، ولمّا لم تجد ردًا مني عزمتْ أن تلحق بي إلى زنجبار فماتت في الطريق.

أنا في عُمان بلا بيت ولا مال الآن. هه! ما الذي يعيدني إلى زنجبار بعد أن بعت كل ما أملك كي أدفع صداق سالمة؟ أخرجت الصك الذي كتبته لخديجة وبكيت حتى سقطت دمعتي على القرطاسة.

المحزون

كان اسمه (سعيد) وكنا نلقبه (المحزون) لأنه لم يعش السعادة في حياته، ولم ينل بعد مماته سوى ذكرى أليمة وبرج كبير من الحصى يسميه الناس (برج سعيد).

لا أحد يعرف أصله، فقد وجدته العمّة (ضنينة) طفلًا لقيطًا بقرب الفلج، وحيث إنه كان يبتسم في تلك اللحظة سمّته العمّة (سعيد) تفاؤلًا بابتسامته تلك. تربّى في بيتها حتى شاخت العمّة وكان شابًا.

حين وصل إلى سن الزواج اقترن بأرملة توفّي زوجها في السواحل قبل أربع سنين، لم يدخل عليها في اليوم الأول ولا الثاني، وفي اليوم الثالث أراد الدخول على زوجته فطرق طارق باب بيته. كان الطارق الزوج الذي لم يكن ميتًا كما زعمت وكان يبحث عن زوجته التي هربت قبل سنتين إلى بلدتنا وادعت أن زوجها ميت وأنها بحاجة إلى زوج يكفل أولادها اليتامى.

بعد تلك الحادثة لم يتزوج سعيد المحزون، لكنه كان راغبًا في الذريّة، فكفل يتيمًا بلا أب ولا أم ورباه في بيته. كان الولد يحب الفندال كثيرًا، واعتاد سعيد المحزون أن يغلي الفندال لولده ويقدّمه له مع العسل. ذات يوم قال الولد لأبيه

المحزون بأنه سيذهب مع رفيقه لجلب الفندال بعد أن نفد من البيت. كان الولد يسرق الفندال من المزارع. وكان المحزون يثق بولده كثيرًا ولا يسأله من أين يجلب الفندال. ذهب سعيد المحزون إلى عمله في المزرعة يهيس على ثور وقد كان مرهقًا من أثر الأرق في الليلة الماضية، كان ينود بين حين وآخر حتى نعس وراوده حلم سمع فيه صراخ ولده، توقف الثور فجأة ولم يتزحزح من مكانه، لا بد أن حصاة كبيرة قد اعترضت طريقه في الحقل. فاستعاد المحزون نشاطه وهو يتعوذ من إبليس في سره من هذا الكابوس الذي رآه، حرك الهياسة وأخذ يدفع الثور إلى أن تحرك قليلًا فسقط المحزون بعد أن تعثر بشيء لدن. ظنه سنورة في البدء ثم تفحص الدم الذي تلطخ به إزاره فإذا به يجد ابنه وقد انفصل رأسه عن جسده بعد أن كان يحاول قلع الفندال فطاح على وجهه وهو يصرخ في الثور أن يتوقف لكن بلا فائدة.

زاد حزن المحزون بعد ذلك الأمر، واعتكف في بيته الذي قبر ابنه في حوشه لكي يذكره بالحادثة، ظل زمنًا طويلًا لا يخرج من بيته ولا يسمع الناس منه إلا بكاءه على ابنه، إلى أن أخرجناه من محنته تلك شيئًا فشيئًا واستطعنا أن نجد له عملًا جديدًا في إحدى القلاع.

عمل حارسًا للقلعة بالتناوب مع حارس آخر، وكان نائبه هذا كثير النوم، كانا قد اتفقا على أن يتبادلا نوبة الحراسة تحت سدرة قريبة من القلعة، فيسلمه المحزون تفق الحراسة قبل أن يذهب، في ذلك اليوم انتظر المحزون رفيقه تحت السدرة ولما وجده قد تأخر علّق التفق ومحزم الرصاص على

غصن مرتفع في السدرة كي لا تطالهما يد سارق ومضى إلى حال سبيله، جاء الحارس الآخر وانتظر المحزونَ طويلًا إلى أن أخذته الغفوة متكئًا على جذع السدرة. ثم مر قطيع شياه وأخذت الشياه تأكل من أوراق السدرة فاهتزت الأغصان والحارس في غفوته لم يزل، فسقط التفق من السدرة وهوى على رأس النائم فمات.

سجن المحزون في القلعة بتهمة القتل الخطأ لما لم يكن لديه ما يدفع به دية القتيل، ثم خرج من السجن دون أن يتغير حزنه، عاش بقية أيامه يدخن ويشرب الخمر ويضرب الطبل في الأعراس والموالد، وبدأ بصره يضعف شيئًا فشيئًا، إلى أن اختفى من القرية ذات يوم، ثم إن الطاعون فتك بقريتنا، كنا كلما عدنا من دفن ميت وجدنا ميتًا آخر، رغم ذلك استطعنا أن ندفن كل موتانا في هذه السنة المشؤومة، عدا ميتًا واحدًا وجدناه وقد تفسّخت جثته بقرب الفلج، لم نستطع الاقتراب منه لخبث رائحته وتورم جثته وامتلائها بالصديد، تشاور الناس في أمره إلى أن اهتدوا أن يرموه بالحصى حتى تنطمر جثته، كنا نرمي ونبكي بحزن شديد فقد كان الميت مبتسمًا رغم الموت، غابت جثته تحت الحصى وصار أشبه ما يكون ببرج بقرب الفلج. هكذا غادر سعيد المحزون الحياة في المكان نفسه الذي جاء منه إليها، ولم يبق منه سوى ذكرى حزينة يبعثها ذلك البرج.

المنسأة والناي

الكوخ

رائحة التراب الجاف تملأ المكان، يتسلل من كوة الكوخ خيط ضوء قمري كث كشعر الخراف لما اختلط به من ذرات الغبار التي تسقط الآن متحدة مع التراب، ترى على الأرض المتربة ثقوبًا حفرتها الرأس المدببة المحاطة بحلقة نحاسية ثبّتها مسمار بدا رأسه بارزًا بنقاط صدئة، لو مددتَ رأسك قليلًا لرأيت ما فوق الرأس المدببة النحيف يغلظ شيئًا فشيئًا، دعك من الحلقات التي تحيط بهذه القطعة الخشبية الدائرية، فلن تعرف عمرها على أية حال ما لم أخبرك به، هل تفكّر في قصها حقًا لتعدها حلقة حلقة كما يفعل بعض العلماء؟ انتظر قليلًا ولتمعن النظر في الأعلى.. أعلى.. أعلى.. أعلى.. الآن قف هنا. ألم تلاحظ اختلاف لون هذا الجزء من القطعة الخشبية عما رأيته تحتها؟ بالطبع هذا ليس لونها، بل لون الجلدة البنية المتكيسة التي تخفي تحتها عروقًا متخثرة الدم وعضلات يابسة وهيكلًا عظميًا شديد الهشاشة.

انظر إلى تلك القبضة التي تحكم مسك رأس القطعة الخشبية المكوّر، سترى فوقها بقليل شعرًا كثًا لا يختلف عن خيط الضوء الذي يمر عبر الكوة، في طريقه إلى البياض

النهائي لولا خيوط سوداء أفسدت ذلك الطريق، تلك لحيته الطويلة كفصول الشتاء الممتدة في بلاد نائية، اللحية التي تتحد مع الوجه وتغطّي تجاعيده التي رأيتها في تلك اليد المتكيّسة، إنها تمضي حيث لا فم يحدها ولا أذنان، حتى الأنف تخرج من فتحتيه شعيرات بيض تحاول الاتحاد مع شعر اللحية كأيادي الغرقى التي تحاول التشبث بأيادي الناجين من هول العاصفة. فوق الأنف سترى الجحوظ بعينيه يشرئب ليغادر الزمن المديد الذي لا ينتهي، وعلى الجبين بإمكانك أن تعد ثلاثة خطوط متوازية تذكرك حتمًا بأستاذ الرياضيات.

فاتتك رؤية الأذنين لأن ذؤابة من القماش الأبيض تغطيهما وتلتف على الرقبة التي تتعلق بها تفاحة آدم وهي تعلو وتهبط كمصعد زجاجي مكشوف في قلب مركز تجاري يعج بالناس، غير أن ما يحرك هذه التفاحة محاولات بائسة لإنزال الروح إن فكرت في الصعود عبر الحلقوم.

انتظر قليلًا فأنت لم تر المشهد الحقيقي، سيبسط الآن رجله العرجاء التي نهشها ذئب جائع ذات يوم، ويهوي بالرأس المدببة على مكان العرج، لا تستغرب ما تراه، يفعل ذلك كي يجبرها على الشفاء، تلك الرجل العنيدة التي لا تستجيب لكل الضرب العنيف بل تفرز الصديد باستمرار مذكرة إياه بسمّ الأفعى التي نهشتها.

ها هو الجحوظ ينحسر شيئًا فشيئًا إلى أن تغور العينان في المحجرين، لنهرب من هذا المكان قبل أن يفجر الشخير هدوءه، ويبدأ هذا المتكوم هناك كخيشة شجاره اليومي مع الليل.

أشعلْ ضوءًا كي ترى ما أراه: كتل من الشعر الأسود غُرِست بها قوائم سوداء نحيلة لا تلبث أن تتحرك حتى يسارع الهزال إلى إسقاطها، فتنبش برؤوسها المدببة أرض الحظيرة ولا تستجيب لأنوفها إلا رائحة البعر المتراص المختلط بعيدان القت اليابس فتعود إلى دس أنوفها في كتل شعرها الكث. هذا الليل البهيمي يطوق الخراف بقتامته كما تطوقها الحيطان الطينية الأربعة للحظيرة. حيث لا آذان ستسمعه هنا وحده الفجر من ينقذ الخراف من هذا الأسر. تثغو حالما تلمح خيط الضوء يتسع شيئًا فشيئًا.

سنعود إلى بدئنا. دقق في الأذنين وقد سقطت العمامة الملوية من على رأسه تر ارتعاشتهما للصوت اليومي الذي يبدأ به الصباح. سينهي شجاره مع الليل ببصقة يقذفها من الكوة فتندفع مختلطة بذرات الغبار، ثم يجر نفسه جرًا ثقيلًا متجهًا إلى الخرس المركون في زاوية بالكوخ يستخرج منه حفنة ماء يغسل بها وجهه المتغضّن، سترى مليًا كيف ترك بساط الرْسَلْ حزوزًا في الوجه، ولو أنك أنزلت عينيك سترى الوزار الملطخ بالتراب والمبقع بالرطوبة وقطرات البول التي نجمت عن شجار الليل قد كشف آثار نهشة الأفعى. ذلك هو الراعي (ود نهشة) وتلك العصا الخشبية التي يتأبطها هي منسأته التي لم تفلح في صد نهشات الأفعى عن رجله اليسرى.

ما تسمعه الآن ليس إلا دبيب رجليه المتيبستين اللتين تزحفان به على البساط المرقع إلى حذائه الجلدي عند عتبة باب الكوخ. لن يفتح الباب قبل أن يسحب دشداشته المعلقة على وتد مغروس بجدار الكوخ ويعيد لف العمامة على رقبته.

مسعود

الحركة نفسها التي تتكرر يوميًا في مثل هذا الوقت. عيناه مصوبتان بعناية تجاه ساعة الحائط وكأنه نسي بعده بآلاف الكيلومترات عن كوخ أبيه. ما تكاد عيناه تغمضان حتى يسارع إلى فتحهما. ليس البرد قارسًا كي يتدرّع بكل هذه الأغطية. لكنها تلك الوخزة القديمة التي نالها من عصا أبيه الغليظة قبل عشر سنوات. يا لتلك الأنفاس المرئية التي يزفرها كلما حانت الساعة الرابعة فجرًا. كأنه شفط عشر سجائر دفعة واحدة ونفخ دخانها في الهواء. يكاد يسمع ضربات العصا الغليظة على الأرض وهي تقترب من حجرته. سيفتح ود نهشة الباب. يتأمل حيطان الحجرة والكتب المصفوفة في روازنها. لكنه لن يفتح منها إلا كتابًا واحدًا يقرأ آياته إلى أن يسمع المؤذن ينطق بكلمات التكبير فيغادر كوخه إلى مسجد الشيخ خليفة وهو يدب على منسأته. مع أن مسعود غادر بلدته قبل خمس سنوات لكنه ما زال يسمع أباه يخطو الخطوات نفسها إلى الفلج. يسمع مضمضاته وتمخطه ورشقات الماء على وجهه ويديه ورجليه.

سوف تعجب من ذلك حتمًا. وسيزيد عجبك ما إن ترى مسعود يقوم من سريره الخشبي متخلصًا من درعه الثقيل. تكاد لا ترى فرقًا بين وجه هذا الذي يشعل سيجارته قرب نافذة غرفته المفتوحة ببضعة سنتيمترات وذلك الذي يقف (سترةً) خلف إمام المسجد خاشعًا في صلاته. ترى الملامح نفسها والخوف نفسه في مشهدين مختلفين تمامًا. سيزيد عجبك صباح

غد بتوقيت بلد الثلوج عندما ترى وجه مسعود الذي تراه الآن ملتحيًا ذا شعيرات قليلة وقد حلقت وهو في فصل الموسيقى يقبض نايًا ينفخه. سيعود إلى نومه الآن لأنه اطمأن أن أباه لن يعود إلى غرفته مجددًا بعد أن يعود من المسجد.

بشير

إن وجد حيزًا في الصف الأول سيقف بشير بمحاذاة جدار المسجد وهو يؤدي صلاة الفجر، حتى لو استيقظ أهل البلدة الصغيرة كلهم مبكرين فلن يكملوا أكثر من صفين. لشدة سواده لم نره جيدًا في ظلمة الفجر وهو يتجه إلى المسجد. لن يكمل صلاته إلا بعد أن يعود إلى الكوخ مبكرًا كي يقود الخراف إلى المرعى

الحكاية القديمة

تقول الحكاية القديمة إن الراعي لم يكن يمشي وراء خرافه زاجرًا إياها بمنسأته الغليظة، بل كان يتقدمها كفارس شجاع يتصدر جنوده في معركة حاسمة، غير أنه كان فارسًا رقيقًا يحمل نايًا نحيلًا يصوب ألحانه الشجية في المرعى فتندى الأعشاب مخضرة من بكائها الفرح بهذه الألحان، الناي ينأى به إلى جذع شجرة مهملة وهو يرقب خرافه تمضغ العشب الطري.

في أحد الأيام وبينما كان الراعي يعزف ألحانه تحت ظلال الشجرة قفز نحوه ذئب متهالك بدا أنه منزعج من شيء ما. كان الذئب مستلقيًا بوداعة في أحد فروع الشجرة بعد أن

عاد من رحلة طويلة، إثر طرده من الغابة التي كان يحكمها حمار، رفس الحمار الذئب بعد أن رآه يأكل الجيف، وقد منعه من قبل أن يأكل شيئًا سوى العشب. أثرت الرفسة في رجل الذئب فبات أعرج، وحين لم يحتمل بقاءه في الغابة تحت سخرية الحيوانات من عرجه غادرها. ما إن وصل المرعى حتى ارتقى شجرة ليرتاح من طول رحلته وليؤمن رجله الأخرى من رفسة حمار آخر، ولم يكد يغمض عينيه حتى أفاقه صوت الناي من غفوته، فقفز من الشجرة نحو مصدر الصوت المزعج، وكشر أنيابه لينهش رجل الراعي.

الصحوة

أفاق الراعي في كوخه، عن يمينه كان يقف مسعود ابنه الوحيد، وعن يساره كان يقف خادمه بشير، احتاج الأمر إلى سنوات كي ينسى صوت الناي ويعتاد المشي بالمنسأة الغليظة، رغم جهود (الوسّام) و(المجبّر) لإعادة رجله إلى وضعها الصحيح لكن الراعي ظل أعرج إلى أن قالوا: اليوم مات ود نهشة.

نهشة الذئب في نظر الناس جعلت منه ابنًا لها، لكنها جعلت منه أيضًا رجلًا مختلفًا في نظر المطوّع خليفة، إذ إن نجاته من الذئب لم تكن لتتحقق لولا فضل الله، فقد كان من الممكن ألا يكتفي الذئب برجل الراعي بل سيصعد بأنيابه إلى ما هو أعلى من الرجل، لكن الله شاء أن يرسل الذئب إلى الراعي لينبهه إلى فساد قلبه الذي ضل عن رشاده بالجلوس إلى جذع شجرة يعزف الناي بينما خرافه تأكل من مزارع الناس!

انتهى ود نهشة إلى حلقات الذكر التي كان يقيمها خليفة في مسجد مجاور للكوخ. ولم تكد تمضي بضعة أيام حتى أسبل على رأسه عمامة بيضاء لف طرفها المتدلي على رقبته تمامًا كما كان المطوع يفعل.

المنسأة

في اليوم نفسه الذي استمع فيه إلى حلقة ذكر تحدثت عن مسؤوليات الراعي نحو رعيته عمد إلى فرع من الشجرة المجاورة لكوخه أعمل فأسه فيه، ثم مضى بالفرع المقطوع إلى الكوخ حيث تحول الفرع في بضع ساعات إلى منسأة غليظة.

كان مسعود قد ناب عن أبيه في أثناء مرضه، لم يكن عزفه متقنًا على الناي كما أبيه، حاول مرارًا أن يستحث العشب على البكاء فلم يستجب له، بدت طراوة العشب تبهت ولم يكن لدى الابن من حيلة إزاء ما يحدث.

عاد ود نهشة إلى المرعى. كان قد ألقى بالناي في الوادي، تقدمته الخراف وهو يزجرها بمنسأته الغليظة يضرب ما يشاء منها ويترك ما يشاء، كان قلبًا غليظًا برجل عرجاء تحرض على الضغينة.

«ففففففففو ففففففففو ففففففففو» هكذا تكلمت المنسأة حين لوّح بها ود نهشة زاجرًا خرافه، «امباااع امباااع امباااع» ردت الخراف بوجل، في كل عرق نافر بساعد الراعي الكهل تصرخ المنسأة بشدة وهي تضرب الهواء كما لو كان جثة يمثّل بها، سيلزمك وقت طويل لتميز كتل الشعر الكث التي تتراكم

أمامك حالما تصل إلى المرعى اليابس، إن لونها يلائم الأرض التي غدت عشبًا كالحًا لا طعم فيه، حين تُنزل الكتل رؤوسها يتبين لك أنها لا تأكل سوى شعرها لقتامة ذلك العشب.

لا تحاول أن تلتقط صورة ثابتة فهذا الأعرج لن يدعك تفعلها في كل خطوة مائلة يخطوها، وركز على تلك الشجرة البعيدة التي يتقدم نحوها، هل تذكرتها؟ اقترب أكثر حتى ترى بوضوح لطخات الدم اليابس التي مهرها الذئب بأنيابه آكلًا معها نتف لحم الرجل التي لن تعود إلى استقامتها، لن يسند ظهره إلى جذع الشجرة ما لم يقرأ ذكرياته الممهورة عليه كما لو كان صحيفة يومية طبعت بحبر أحمر لم يكن سوى دم الرجل العرجاء. يبسط رجله الآن ولكي يعيد استقامتها ـ كما يظن ـ لا بد من هذا: «وششش وششش وششش». يبدو لك حديث المنسأة مع الرجل وشوشة ضد اليد النافرة العروق التي تأمر المنسأة بما ينبغي لها أن تكون: سيفًا في رأس عدوه العرج.

بعد أن ينتهي فصل العذاب اليومي للرِجْل وتبدأ حرارة الشمس في الازدياد، سوف ينتقل إلى الشجرة المعمرة التي تنتصب بجوار الكوخ ليستظل بها ريثما تعود الخراف الهزيلة من المرعى إلى الحظيرة عند الغروب، فيغلق الباب عليها ويعود إلى كوخه.

لن ترى أكثر من هذه الوشوشات وكتل الشعر التي تأكل شعرها بلذّة، لنأمل أن الأمور لن تسوء أكثر من ذلك، هيا اتبعني، سنعود قبله إلى الكوخ، فهناك أمور أسوأ تخفى على الراعي. لا تسألني أسئلة سخيفة، ألم يسبق لك أن سمعت مثل

هذه الكركرات والملاعبات البريئة؟ إنهما يلعبان لعبة العريسين، لن أقول لك من هي العروس، لأنه ليس هناك من عروس بكل بساطة، الأمر يعود إلى مخيلتك، وإن لم تستطع معرفة ما يدور ادخل إن شئت وتسلّ بالمنظر البريء لكن حذار أن يرياك، فأمامنا عمل طويل كطول الوقت الذي يأخذه الراعي في الوصول إلى الكوخ بعد أن تنتهي الخراف من جز كتل شعرها.

القرار

وضع بشير العشاء، كما أمره سيده، في صينية: مرق لحم مع أرغفة الخبز اليابسة، على البساط المرقع جلس ود نهشة مع خليفة المطوّع، في جلسته كادت لحية المطوع البيضاء تلمس الأرض، تخيل مسعود أنها (مجمعة) سوف يكنس بها أتربة البساط، أما دشداشته القصيرة فكانت تفصح أكثر مما تكتم: ساقان سمراوان عديمتا الشعر تلمعان من زيت الزيتون المدعوك بهما، في الأعلى تمكن مسعود من أن يرى بقع ماء الورد الجبلي الذي ضمخ به خليفة (فرّاخة) الدشداشة وشيئًا من عمامته التي تتدلى ذؤابتها من أذنه اليسرى لتنام بوداعة على كتفه اليمنى، تعجب من شاربه المحفوف بعناية لدرجة أن شامة بارزة فوق جانب شفته الأيمن بدت خالية من أية شعرة، كانت ككرة سُوِّدت بالفحم.

أعطاه ود نهشة الرأسَ كي يفتته، ولأنه لم يكن يحب المطوع ظل مسعود مطأطئًا رأسه كالنعامة التي تنفّس غضبها تحت التراب. كلما رآه في البيت يخيل إليه حرمانه من بشير في

أية لحظة، فقد كان صوت خليفة وهو يؤم الناس في الصلاة عذبًا. فتت الخبز مع المرق حتى صار ثريدًا، انهمك خليفة في الأكل، كان ود نهشة حذرًا في أكله خشية أن يأكل أكثر من ضيفه، فانهمك هو الآخر في إكرامه بالمزيد من اللحم.

بعد الوليمة ربت خليفة على ظهر مسعود قليلًا ثم قال لأبيه: «لن آخذ ابنك معي». كان ود نهشة قد طلب منه أن يأخذ مسعود في رحلاته الدعوية ويتلقى العلم عنه.

«أرسله إلى بلاد الثلوج. علمهم سينفعه أكثر» أردف خليفة.

تعجب ود نهشة من رد المطوع، لكنه لم يشأ أن يخالفه فيما اقترحه عليه، ذبلت آماله سريعًا كما تذبل أوراق البرسيم إن لم يطعمها خرافه في يومين.

غادر المطوع الكوخ وبقيت عبارته تتردد في سمع الراعي كما لو أن أذانًا رفع في أذنيه، فكان لا بد من أن يلبي نداء الأذان. أسند كفيه إلى المنسأة مواجهًا ابنه الوحيد، خبطها على الأرض ليتحسس قوته أمام الابن أو ليزيد رقع بساط الرسل المتيبس، ثم حرر يده اليمنى وأرساها في كتف مسعود. ضمه إلى صدره وقال: ما يريده الله لنا سيكون يابني.

الخيالات

هل لديك روزنامة؟ إن لم تكن لديك فسأذكرك بأننا في السنة الخامسة منذ رحيل مسعود إلى بلاد الثلوج، أعلم بأنك ستسألني عن سبب انقطاعي عن سرد ما حدث أثناء ذلك، أو

تظنني ملاكًا أقف على أكتاف البشر لأسجل أفعالهم المتكررة؟ لقد فقدت كثيرًا من مهاراتي السردية لكنني لما أزل أتذكر الليلة التي لف فيها مسعود عمامة بيضاء على رأسه وارتدى دشداشة بيضاء تُبرز من أسفلها نحولة ساقيه السمراوين، لما أزل أتذكر معطفًا ثقيلًا حشا به حقيبة سفره مع كتيبات الأدعية والأذكار وركب سيارة أقلته إلى مطار العاصمة، بينما ود نهشة يغالب دمعتين ترقرقتا في عينيه بأن خبط الأرض بمنسأته ثم عاد إلى كوخه ليخلع دشداشته ويعلقها على الوتد الخشبي. ونام بعد أن أنهى قراءة الأذكار رغم أن رائحة التراب الجاف كانت تملأ المكان.

لا يمكنك رؤية المرعى في هذا الوقت من الليل، أغمض عينيك وتخيّل أرضًا قاحلة مع بضع أشجار سمر يابسة ورائحة جيف لخراف نفقت قبل أن تعود إلى الحظيرة، ذلك هو المرعى الذي ما عاد يذهب إليه الراعي كي لا يختلط هذا الواقع بخيالاته التي يملأ بها عقله.

كان يزخرف واقعه بصورة ابنه الوحيد الذي أرسله إلى بلاد الثلوج النائية ليتعلم. لم يكن الابن في صور أبيه المتعددة سوى شاب ملتح بذؤابة تتدلى من عمامته يحمل الكتب في يديه ويذكر الله بكرة وأصيلًا. خيط ضوء يمر بالكوة ليسقط على العينين فينقشع الخيال تمامًا، انظر إليه كيف يزحف على الأرض مقلدًا خرافه كي يعثر على نعله المصنوعة من إهاب أحدها، الآن وقد وجدها لن نتبعه إلى الحظيرة لأنه سيفتح بابها ويعود إلى مستقره الآخر تاركًا الخراف في تيهها اليومي إلى المرعى اليابس.

ها أنت ترى كيف استقرت الرجل العرجاء على الأرض أخيرًا، بالهيئة نفسها يسند ظهره إلى جذع شجرة معمّرة هذه المرة، ترى المنسأة الآن بوضوح تام، ولن أعيد لك ما سيفعله برجله لأن رجلًا آخر سوف يغيّر من رتابة المشهد، لدرجة أن ود نهشة لم ينتبه إلى عودة خرافه من المرعى بعد سماعه تلك العبارة.

«غدًا سيعود ابنك». هتف بشير، فانفرجت شفتا الراعي لأن ما سمعته أذناه سيعيده إلى العالم الواقعي أخيرًا بعيدًا عن خيالاتٍ تصوّرها له عقله الهرم. حفيف العشب الذي أحدثه نعلاه الجلديان في طريقه إلى الحظيرة جعل الخراف بداخلها وجلة، في مثل هذه الساعة من الليل لا يمكن أن يعبر الراعي كوخه نحو الحظيرة إلا لأمر واحد، فتح الباب وتفحص بعينيه الحادتين خرافه إلى أن استقر على خروف بدا أسمن قليلًا عن بقية الخراف.

من تحت إزاره المقرفص سحب سكينًا من غمدها، ثم مرّر حدها على حصاة ملساء، لا شك أنك تسمع جيدًا صليل السكين وهو يسنّها، لقد احتاج إلى وقت طويل كي يعيد إلى السكين حدتها، فقد أمضت في الغمد قرابة الخمس سنين مذ سافر الابن إلى بلاد الثلوج، لا عليك من ثغاء الخروف فسوف يخرسه عما قليل، ليعطي لبشير المعاليق التي وعده.

ها هو الآن يعلق الخروف من قائمتيه على غصن الشجرة القوي، انظر إلى الدم مليًا، أرأيت كيف يقطر آخذًا معه بعرات الخروف؟ ينفخ في بلعوم الخروف فتنتفخ الرئة كقربة ليعالجها

بسكينه فتخمد تاركة نَفَس الراعي يتسرب من أوردتها المفتوحة، منذ زمن بعيد لم يمارس هذه اللعبة، لعل غياب ابنه عنه دعاه إلى تصنّع هذه البهجة الموقتة.

هل تسمع ما أسمعه؟ إنه صوت مألوف ومحبب بالنسبة إليك. لكن انظر إلى وجه الراعي مع اقتراب الصوت من أذنيه، سترى الخطوط الثلاثة المتوازية تعود إلى جبينه المقطب، وستجحظ عيناه مجددًا وتنفر العروق من الجلدة المتكيسة التي راحت أطرافها الخمسة تمسك طحال الخروف، كان يعرف ما سيفعله بالطحال بمجرد أن يتأكد من الأمر، ما إن أصبح صوت الناي قريبًا من أذنيه حتى قذف بالطحال حيث أراد له أن يستقر: في جانب صدر ابنه الأيسر.

عاد ود نهشة إلى عالمه الخيالي رافضًا هذا الواقع الذي جاء به ابنه من بلاد الثلوج: شعر مسترسل ناعم وذقن حليق وقميص مخطط تتدلى من فتحة أعلاه سلسلة ذهبية وبنطال جينز وأصوات حزينة يصدرها ناي. دخل إلى الكوخ وعاد يستقبل ابنه بمنسأته الغليظة.

الحبس

لم يعد الراعي راعيًا حين شاخ، عشرون عامًا وأنت تسمع هذا الشخير الذي يسمعه الابن المسجون في غرفةٍ بالكوخ، كان جل ما يفعله الراعي أن يستظل بالشجرة أو ينام، حتى الحظيرة ما عاد يهتم بإغلاق بابها لا إمعانًا في الشيخوخة بل لأن الخراف الهزيلة هربت إلى مرعى آخر، ولم تعد إلى الحظيرة بعد ذلك اليوم الذي حبس فيها ابنه.

الرؤية في هذه الغرفة تكاد تكون منعدمة، ولا شيء يدل على حياة بها سوى زفرات وأنّات، ليس بإمكانك رؤية الأخاديد التي صنعها رأس المنسأة المدبب في هذا الجسم النحيل، اللحية التي نمت على الذقن الحليق أصبحت أطول من شعره المسترسل، والقميص والبنطال أسمال يجرها الابن وراءه، وهذه الوشوشات التي تسمعها الآن تتكرر في مثل هذا الوقت منذ أيام؛ إذ يأتي بشير بقطع ثلج يرميها من كوة صغيرة أعلى هذه الغرفة الصماء، فيبل مسعود بها ريقه الجاف ويمسح الأخاديد التي تملأ جسمه، الثلج يذكره بذلك البلد الذي التقى فيه زمّارًا علمه العزف على الناي.

عشرون سنة لم تكن كافية لينسى مسعود حنينه إلى الناي الذي لم يفارقه طوال خمس سنوات، الآن وقد علا شخير أبيه مستغرقًا في النوم والهزال بات من الواضح أن الخطة التي اتفق عليها الاثنان قد آن أوانها.

الجائحة

دخل بشير إلى الكوخ، لم يسمع شخير الراعي فقد كانت السماء قد نشرت غيومها لتغسل السواد الذي علق بها، وستتقاطر المياه منها إلى أن تجففها الشمس، قادته أنفه إلى رائحة العشرين عامًا التي خلفها الصدأ في مفتاح الغرفة، كنتُ سأفصّل لك ما لم تره لولا حاسة أنفه القوية التي اختصرت بطء الزمن بجذب المفاتيح المعلقة على وتد خشبي برشاقة بهلوان، غادر الغرفة ولم يسمع شخير الراعي ولا صوت سقوط منسأته الغليظة على الأرض.

باتت الأرض مشاعًا للسماء، كانت تعصر غيومها بشدة دون أن تزيل السواد عنها، حين تحرر مسعود قرر الفرار مع بشير إلى بلاد الثلوج، لكن السيل سبق كلماته إذ خرجت جثة الراعي من الكوخ وتدحرجت كثيرًا حتى ساحت في مياه الوادي.

الناي

تشرق الشمس على جسم نحيل أمضى عشرين عامًا محبوسًا في غرفة بكوخ تملؤه رائحة التراب الجاف، سيقبض نايه ويمضي إلى المرعى كما لو أنه يقود قطيع الخراف الذي قاده أبوه في مثل سنه، راح يعزف ألحانًا حزينة للعشب الذي بكى كثيرًا إلى أن اخضر ونما. رائحة العشب الندي أعادت أول خروف هارب، وثغاء الخروف الشبعان من عشب المرعى الأخضر جلب بقية الخراف.

البيت العود

يضحكني خيالك كثيرًا حين ظننت أننا في مكان آخر بعد عشرين سنة من حادثة الوادي، إننا في المكان نفسه، المكان الذي ما عادت تملؤه رائحة التراب الجاف لأن الأرض بلطت بالرخام، والكوخ الذي جرفه الوادي مضى كمسافر بلا عودة. تحسس معي هذه الأعمدة الذهبية، ودقق جيدًا في هذه النقوش والزخارف التي تزين الأسقف والجدران، ألم أقل لك إنك خيالي جدًا؟ هيي أنت! نعم أنت! أفق من غفوتك فأنت لست في الكوخ. أنت الآن في (البيت العود).

الحكاية الجديدة

لا تنتظرِ مني شرحًا مفصلًا لكل شيء. عليك أن تدرك أن بصري ضعف وذاكرتي اضمحلّت تمامًا. منذ أن تدحرجت جثة ود نهشة حُملت إلى الوادي الذي جرفها مع جذوع النخل. أنت كثير الكلام. قلت لك ألا تسألني فيما لا أراه. أنا أخبرك بما أرى فقط. أما من حملها ومن ألقاها في الوادي فذلك في علم الغيب. اسمع مني الحكاية الجديدة ولا تصدق غيرها إن شئت:

«كانت هناك خراف سمينة خبأها ود نهشة في الحظيرة. صحيح أنها أقل من الخراف الهاربة. لكنها كانت تشكل ثروة كبيرة له. كان الراعي الوحيد في البلدة ومصدر اللحوم الطازجة. لم تمضِ هذه الخراف إلى المرعى يومًا فقد كان ود نهشة يعلِّفها بنفسه ويعتني بها جيدًا»...

جلس الذئب في حجر الراعي مستمعًا إلى لحن نايه الحزين، ثم قال: لقد سئمتُ من السلام لنفعل شيئًا عاديًا؟ قال له الراعي: لا أعرف شيئًا عاديًا سوى الرعي والعزف على هذا الناي، فقال له الذئب: لقد اخترتَ نايك وسأختار أنيابي. فدعا الراعي إحدى الغنمات، وقال لها: هذا الذئب يريد أن يأكلك. فردت عليه: لن أوبخك، فالكبش لا يحبني، وأنا ضعيفة في الأصل. فأكلها الذئب كما يفعل الأقوياء، وأخذ الراعي جلدها ثم اندس بين القطيع وهو يثغو.



ISBN 978-614-404-633-3

